

هذه قصة التاجر على نور الدين المصري

وما جرى له مع جار بيته مريم

الزنارية بنت ملك أفرنجيه

وما فهم من الجحائب

على التمام

م

بسم الله الرحمن الرحيم

وهما يحكى به انه كان في قديم الزمان وسالف العصر والوان رجل تاجر بالديار المصرية يسمى تاج الدين وكان من أكابر التجار ومن الأثمناء الأحرار لأنه كان مولعا بالسفر الى جميع الأقطار وسحب السير في البرارى والقفار والسهول والأوطار وجزائر البحار في طلب الدرهم والدينار وكان له عبيد ومماليك وخدم وجواري وطالما ركب الأخطار وقاسى في السفر ما يشيب الأطفال الصغار وكان أكثر التجار في ذلك الزمان مالا وأحسنهم مقالا صاحب خيول وبغال وبخاقي وجمال وغرائر وأعدال وبضائع وأموال وأقشعة عديدة المثل من شدود حمصة وثياب بعلبكية ومقاطع سندسية وثياب مروزية وتفاصيل هندية وأزرار بغدادية وبرانس مغربية ومماليك تركية وخدم حبشيه وجواري روميه وعلمان مصريه وكانت غرائر أجماله من الحرير لانه كان كثير الاموال بديع الجمال مائس الاعطاف شهي الانعطاف كما قال فيه بعض واصفيه

وتاجر عابن عشاقه * والحرب فيما بينهم تاجر

فقال ما للناس في ضجة • قلت على عينك يا تاجر

وقال آخري وصفه وأجاد وأنى فيه بالمراد

وتاجر فى وصله زارنا * والقلب من الحماظه حائر

فقال لى مالك فى حيرة * قلت على عينك يا تاجر

وكان لذلك التاجر ولد ذكر يسمى عليان نور الدين كأنه البدر اذا بدر فى ليلة أربعة عشر بديع الحسن والجمال طريق القدر والاعتدال فجلس ذلك الصبي يوما من الايام فى دكان والده على جرى عادته للبيع والشراء والاخذ والعطاء وقد دارت حوله اولاد التجار فصار بينهم كأنه القمر بين النجوم يبين أزهر وخذأجر وعذار أخضر وجسم كانه المرمره كما قال الشاعر

ومليح قال صغفي * أنت في الوصف رجع
قلت قولا باختصار * كل ما فيك مليح

(وكما قال فيه بعض واصفيه)

له خال على صفحات خد * كنقطة عنبر في مهن مرمر

والمخاطب أسيف تنادى * على عاصي الهوى الله أكبر

فعزمه أولاد التجار وقالوا له ياسيدي على نور الدين نشتمى في هذا اليوم اثنتان فرج
نحن وأباك في البستان الغلاني فقال لهم حتى أشاور والدي فاني لا أقدر أن أذهب
إلا بإجازته فبينما هم في الكلام وإذا بالده تاج الدين قد أتى فنظر إليه ولده وقال
يا أبت إن أولاد التجار قد عزموني لأجل أن أتفرج معهم في البستان الغلاني فهل
تأذن لي في ذلك فقال نعم يا ولدي ثم أنه أعطاه شيامن المال وقال توجه معهم فركب
أولاد التجار حبرا وبغالا وركب على نور الدين بغلة وصار معهم إلى بستان فيه ما تشبهه
الانفس وتلد الأعين وهو مشيد الأركان رفيع البنيان له باب مقنطر كأنه
ايوان وباب سماوي يشبه أبواب الجنان وبوابه اسمها رضوان وفوقه مائة مكعب
عنب من سائر الألوان الأحمر كأنه مرجان والأشود كأنه أنوف السودان
والأبيض كأنه بيض الحمام وفيه الخوخ والرمان والكثيرى والبرقوق والتفاح
كل هذه الأنواع مختلفة الألوان صنوان وغير صنوان كما قال فيه الشاعر

عنب طعمه كطعم الشراب * حال لونه كالون الغراب

بين أوراقه زها فتراه * كبنان النساء بين الخضاب

وكما قال فيه الشاعر أيضا

عناقيد حكت لماتدات * على قضبانها جسمى فحولا

حكت عسلا وماء في اناء * وعادت بعد حصر مهاشمولا

ثم اتهموا إلى عريشة البستان فرأوا رضوان بواب البستان جالسا في تلك العريشة

كانه رضوان خازن الجنان ورأوا مكتوبا على باب العريشة هذه البيتين

سقى الله بستانا تدلت قطوفه * هالت بها الأغصان من شدة الشرب

إذا رقت أغصانه بيد الصبا * تنقطها الأنواع بالسلو الرطب *

ورأوا مكتوبا في داخل العريشة هذين البيتين

ادخل بنا يا صاح في روضة * تجلو عن القلب صدا همه

نسيمها يعمثر في ذيله * وزهرها يضحك في كفه

وفي ذلك البستان فواكه ذوات أفنان وأطيبار من جميع الاصناف والالوان مثل

فاخت وبلبل وكروان وقرى وجمام يغررد على الأغصان وأنهارها به الماء

الجارى وقد رقت تلك الجارى بازهار وأثمار ذات كفا قال فيه الشاعر

سرت النسيم على الغصون فشابهت * خوداء تعمثر في جميل ثيابها

وحكت جدا ولها السيوف اذا انتضت * أيدي الفوارس من غلاف قرابها

وكما قال فيه الشاعر أيضا

والنهر مد على الغصون ولم يزل * أبدا يمثل شخصها في قلبه

حتى اذا ظن النسيم سرى لها * من غيرة فاما لها من قربه

وأشجار ذلك البستان عليها من كل فاكهة زوجان وفيه من الرمان ما يشبه أكر

القيروان كما قال فيه الشاعر

ورمان رقيق القشر يحكى * نهود البكر اذ برزت فحولا

اذا قشرته يبدو لدينا * من الياقوت ما بهر العقولا

(وكما قال فيه الشاعر)

مالممة تبدي لقاصد جوونها * بواقيت جرائف معاطف عبقرى

ورمانة شبهتها اذ رأيتها * بنهد العزاري أو بقبة مرمر

وفيها شفاء للربض وصحة * وفيها حديث للنبي المطهر

وفيها يقول الله جل جلاله * مقالا يبلغنا في الكتاب المسطر

وفي ذلك البستان تفاح سكرى ومسكى يدهش الناظر كما قال فيه الشاعر

تفاحة جعت لوزن قد حكيها * خدى حبيب ومحبوب قد اجتمعا

لاحا على الغصن كالضدين من عجب * فذاك الأسود والثاني به لهما

تعانقا فبدا واش فراعهما * فاجرذا نجلا وأصفردا ولما

وفي ذلك البستان شمس لوزى وكافورى وجيلاني وعنابي كما قال فيه الشاعر

والشمس اللوزى يحكى عاشقا * جاء الحبيب له طير ليه
وكفاه من صفة المتيم مابه * يصفه زاهره ويكسر قلبه
(وقال فيه آخر وأجاد)

انظر الى الشمس فى زهره * حدائق يجلو سناها المحدثق
كالا نجم الزهر اذا ما زهت * فالعصن يزهر وبها فى الورق
وفى ذلك البستان برقوق وقراصى وعذاب تشفى السقيم من الاوصاب والتين
فوق أعصانه ما بين أجر وأخضر بحير العقول والنواظر كما قال فيه الشاعر
كانما التين يبدو آمنه أبيضه * مع أخضر بين أوراق من الشجر
أبناء روم على أعلى القصور وقد * جن الظلام بهم باتوا على حذر
(وقال آخر وأجاد)

أهلا بتين جاءنا * منضد على طبق كسفرة مضمومة * قد جعلت بلا حلق
(وقال آخر وأجاد)

أنعم بتين طاب طعما واكتسى * حسنا وقارب منظر من مخبر
بيدى تعاطيه اذا ما ذقته * ربح الاقحاح وطيب طعم السكر
وحكى اذا ما صب فى أطباقه * أكر اصنع من الحرير الاخضر
(وما أحسن قول بعضهم)

قالوا وقد ألفت نفسى تفكها * بغير واكهة فى حبها هاموا
لاى شئ تحب التين قات لهم * للتين قوم وللهميز أقوام
(وأحسن منه قول الآخر)

التين يعجبني عن كل فاكهة * لما استوى والتوى فى عصنه الراهى
كانه عابد والسحب ما طرة * فاضت مدامه من خشية الله
وفى ذلك البستان من الكمثرى الطورى والحلبى والرومى ما هو مختلف الالوان
صنوان وغير صنوان ما بين أصفر وأخضر يدهش الناظر كما قال فيه الشاعر
تهنيك كمثرى غدا لونها * لون محب زائد الصفرة
شبيهة بالبكر فى خدرها * والوجه منها مسبل السترة

٦
وفي ذلك البستان من الخوخ السلطاني ما هو مختلف الالوان من أصفر وأحمر كما قال
فيما الشاعر

كانما الخوخ في روضة * وقد بداخذه العندى
بناقد من ذهب أصفر * قد خضبت وجهها بالدم
وفي ذلك البستان من اللوز الأخضر ما هو شديد الحلاوة يشبه الجمار ولبه من داخل
ثلاثة أثواب صنعة الملك الوهاب كما قيل فيه

ثلاثة أثواب على جسد رطب * مخالفة الأشكال من صنعة الرب
تريه الردى في ليله ونهاره * وان يكن المسجون فيها بلا ذنب
(وقال آخر وأجاد)

أما ترى اللوز حين تظهره * من الالوان كيف مقتطف
وقشره قد جلى القلوب لنا * كأنه الدر داخل الصدف
(وأحسن منه قول الآخر)

يا حسن لوز أخضر * أصغره ملء اليد * كأنما زهره - وره
نبت عذار الارمد * وقد غدت قلوبه * مزدوجا مع مفرد
كانها لا آتى * تصان في زبرجد
(وقال آخر وأجاد)

ما أبصرت عيناى مثل اللوز ذا * في حسنه لما بدت أنواره
الرأس منه بأشتهال شائب * حين انتشاوا خضر منه عذاره
وفي ذلك البستان النبق مختلف الالوان صنوان وغير صنوان كما قال فيه بعض
واصفيه هذا الشعر

انظر الى النبق في الاغصان منتظما * كشمس معجب يزهر على القضب
كان صفوته للناظرين غدت * تحكى جلاجل قد صبغت من الذهب
(وقال آخر وأجاد)

وسدرة كل يوم * من حسنها في فنون
كانما النبق فيها * وقد بدا للعيون

جلاجل من نضار * قد علت في غصون
 وفي ذلك البستان النارج كانه خولجان كما قال فيه الشاعر الولهان
 وجرأ مثل الكف ترهوب مجننها * فظاهرها نار وباطنها زلج
 ومن عجب زلج مع النار لم يذب * ومن عجب نار وليس لها وهمج
 (وقال بعضهم وأجاد)

وأشجار نار نرج كان ثمارها * إذا ما بدت للناظر المتغرس
 خدود نساء قد تبرجن زينة * بأيام عيد في غلائل سندس
 (وقال آخر وأجاد)

كان ربا النارج اذهبت الصبا * وأضحيت به الاغصان وهي تميد
 خدود عليها بهجة المحسن أقامت * عليها باوقات السلام خدود
 (وقال آخر وأجاد)

وشادن قات له صف لنا * بستاننا هذا ونار نرجنا
 فقال لي بستانكم طلعتي * ومن جنى النارج وردى جنى
 وفي ذلك البستان الاترج لونه كلون التبروق - دحط عن أعلى مكان وتدلني في
 الاغصان فالت به وكأنه سبائك العقيان وقد قال فيه الشاعر
 أما ترى أبنكة الاترج مثمرة * يخشى عليها اذا مالت من العطب
 كأنها عندما مر النسيم بها * غصن تحمل قضباناً من الذهب
 وفي ذلك البستان الكباد متدلياً في أغصانه كنهود أبكار تشبه الغزلان وهو على غاية
 المراد كما قال فيه الشاعر وأجاد

وكبادة بين الرياض نظرتها * على غصن رطب كقامة أعيد
 اذا مالتها الريح مالت ككرة * بدت ذهباً في صولجان زبرجد
 وفي ذلك البستان الليمون ذكي الرائحة يشبه بيض الدجاج واسكن صفرة زينة
 مجانيه وير يجه بزهو لجانبه كما قال فيه بعض واصفيه

أما ترى الليمون لما بدا * ياخذ أشراقة بالعيان
 كأنه بيض دجاج وقد * لطخته الخمس بالزعفران

وفي ذلك البستان من سائر الغواكه والرياحين والنخضرات والمشجومات من
 الباميين والفاغية والفيل والسنبلي العنبري والورد بسائر أنواعه ولسان الحمل
 والآس وكامل الرياحين من جميع الاجناس وذلك البستان من غير تشبيه
 كانه قطعة من الجنان لرائيه اذا دخل العليل خرج منه كالأسد الغضبان لا يقدر
 على وصفه الا ان لما فيه من العجائب والغرائب التي لا توجد الا في الجنان كيف
 لا وامم بوابه رضوان لسكن بين المقامين شتان (فلما) تفرج اولاد التجار في ذلك
 البستان جلسوا بعد التفرج والتنزه على ليوان من لوانه وبنه وأجلسوا نور الدين في
 وسط الليوان على نطع من الاديم المزر كس متكئا على مخدعة محشوة بريش النعام
 وظهارتها مدورة سنجابية ثم ناولوه مروحة من ريش النعام مكتوب عليها هذان
 البيتان ومروحة معطرة النسيم * تذكري طيب أوقات النعيم
 وتهدى طيبها في كل وقت * الى وجه الفتى المجر الكريم

ثم ان هؤلاء الشباب خلعوا ما كان عليهم من العمامة والنياب وجلسوا يتحدثون
 ويتنادمون ويتجادون اطراف الكلام بينهم وكل منهم يتامل في نور الدين وينظر
 الى حسن صورته وبعده ان اطمان بهم المجلس ساعة من الزمان اقبل عليهم عبد
 وعلى رأسه سفرة طعام فيها اواني من الصينى والبلور لأن بعض اولاد التجار كان
 اوصى اهل بيته بما قبل الخروج الى البستان وكان على تلك السفرة مما درج وطار
 وسبح في البحار كالقطا والسمان وافراخ الحمام وشياه الضان والطف السمك فلما
 وضعت تلك السفرة بينهم تقدموا واكوا بحسب الكفاية ولما فرغوا من الاكل
 قاموا عن الطعام وغسلوا أيديهم بالماء الصافي والصابون الممسك وبعده ذلك نشفوا
 أيديهم بالمناديل المنسوجة بالحريز والقصب وقدموا والنور الدين من يدى الامطرزا
 بالذهب الاحمر فمسح به يديه وجاءت القهوة وشرب كل منهم مطبوخه ثم جلسوا
 للحديث واذا بخولى البستان ذهب وجاءه بسالة مملوءة بالورد وقال ما تقولون يا ساداتنا
 في المشعوم فقال بعض اولاد التجار لا بأس به خصوصا بالورد فانه لا يبرد فقال البستاني
 نعم ولكن عادتنا انما نعطي الورد الا بالمنادمة فن اراد اخذها فليات بشئ من الشعر
 يناسب المقام وكان اولاد التجار عشرة اشخاص فقال واحد منهم نعم اعطني وانما

أنشدك شيامن الشعر يناسب المقام فنأوله حزمة من الورد فاخذها وأنشدها

الآيات للورد عندي محل * لأنه لا يعمل

كل الرياحين جنود * وهو الأمير الأجل

ان غاب عزوا وتاهوا * حتى اذا جاء ذلوا

ثم ناول الثاني حزمة ورد فاخذها وأنشدها في البيتين

دونك ياسيدي وردة * يذكرك الملك أنفاسها

كغادة أبصرها عاشق * غطت باكامها رأسها

ثم ناول الثالث حزمة ورد فاخذها وأنشدها في البيتين

ورد نفيس تسر القلب رؤيته * تحكي رواثله ما طاب من ند

قد ضمه الغصن في أوراقه طربا * كقبلة بغم من غير ما صد

ثم ناول الرابع حزمة ورد فاخذها وأنشدها في البيتين

أما ترى دوحه الورد التي ظهرت * لها بدائع قد دركبن في قضب

كانن - ن يواقيت يطوف بها * زبرجد قد حوى شذران الذهب

ثم ناول الخامس حزمة ورد فاخذها وأنشدها في البيتين

قضب الزبرجد قد جان وانما * آثارهن سبائك العقبان

وكان وقع القطر من أوراقه * دمع بكتفه فواتر الاجفان

ثم ناول السادس حزمة ورد فاخذها وأنشدها في البيتين

يا وردة لبديع المحسن قد جمعت * وأودع الله فيها لطف أسرار

كانها خد محبوب ونقطه * لدى التواصل مشتاق بدينار

ثم ناول السابع حزمة ورد فاخذها وأنشدها في البيتين

قلت للورد ما لشوكك يؤذي * كل من مسه سريع الجراح

قال لي معشر الرياحين جندي * أنا سلطانها وشوكي سلاجي

ثم ناول الثامن حزمة ورد فاخذها وأنشدها في البيتين

رعى الله وردا عند الأصفر * بهما نضيرا يحاكي النضار

وحسن غصون به أنثرت * وجان منه شموسا صغار

ثم ناول التاسع حزمة ورد فاخذها وأنشدهذين البيتين
 شجرات ورد أصفر حذبت * في قلب كل متسيم طمربا
 عجب الهامن دوحه سقيت * ماء اللجين قائم رنت ذهبيا
 ثم ناول العاشر حزمة ورد فاخذها وأنشدهذين البيتين
 الم نران جنـد الورد يزهو * بصفر من مطالعـه وجر
 وقد شفته والشوك فيه * نصال زمرد في ترس تبر
 فلما استقر الورد في أيديهم أحضر البستاني سفرة المدام ووضع بينهم صينية مزركشة
 بالذهب الاجر وأنشده يقول

هتف الفجر بالسنا واسق نجرا * عانسا تجعل الحليم سـفـها
 لت ادري من لطفها ووصفها * أبكاس ترى أم الكاس فيها
 ثم ان خولى البستان ملاء وشرب ودار الدور الى أن وصل الى نور الدين ابن التاجر
 تاج الدين فلا خولى البستان كاسا وناولها اياه فقال له نور الدين أنت تعرف أن
 هذا شئ لا أعرفه ولا شربته قط لان فيه اثما كبير او قد حرم في كتاب الرب القديم
 فقال خولى البستان ياسيدي نور الدين ان كنت ما تركت شربه الامن اجل الاثم
 فان الله سبحانه وتعالى كريم غفور رحيم يغفر الذنوب العظيم ورجته وسعت كل
 شئ ورجة الله على بعض الشعراء حيث قال

كن كيف شئت فان الله بخير * وما عليك ان أذبت من باس
 الا ائتمن فلا تقرب بهـمـأ أبدا * الشرك بالله والاضرار للناس
 ثم قال واحد من اولاد التجار بحياقي عليك ياسيدي نور الدين ان تشرب هذا
 القدح وتقدم شاب آخر وحلف عليه بالطلاق وآخر وقف بين يديه على أقدمه
 فاستهى نور الدين وأخذ القدح من خولى البستان وشرب منه جرعة ثم بصقها
 وقال هـ ذامر فقال له الشاب خولى البستان ياسيدي على نور الدين لولا أنه مر
 ما كانت فيه هذه المنافع ألم تعلم ان كل حلواذ الكل على سبيل التداوى يجده الا كل
 مر وان هـ الحرة منافعها كثيرة فمن جلة منافعها انها تهضم الطعام وتصرف الهم
 والغم وتزيل الرياح وتروق الدم وتنقى اللون وتنعش البدن وتشجع الجبان

وتقوى همة الرجل على الجماع ولو أناذ كرنا منافعها كلها لطلال علينا شرح ذلك
وقال بعض الشعراء

شربنا وعفو الله من كل جانب * وداويت أسقامي بمرثشف الكاس
وما عسرتني فيها وأعرف أثمها * سوى قوله فيها منافع للناس
ثم إن خولى البستان نهض قائم على أقدامه من وقته وساعته وفتح مخدعاً من
مخادع ذلك الأيوان وأخرج منه قمع سكر مكرر وكسر منه قطعة كبيرة ووضعها
لنور الدين في القدح وقال له ياسيدي إن كنت هبت شرب الخمر من مرارته فاشرب
الآن فقد حلا فعند ذلك أخذ على نور الدين القدح وشربه ثم ملا الكاس واحد
من أولاد التجار وقال ياسيدي على نور الدين أنا عبدك وقام آخر وقال أنا خدامك
وقام آخر وقال من أحل خاطري وقام آخر وقال بالله عليك ياسيدي على نور الدين
أجبر بخاطري ولم يزل أولاد التجار العشرة بنور الدين إلى أن سقوه العشرة أقداح
كل واحد قدحا وكان باطن نور الدين بكر عمره ما شرب خمر أقطا في تلك الساعة
فدار الخمر في دماغه وقوى عليه السكر فوقف على حبله وقد ثقل لسانه وانجم
كلامه وقال يا جماعة والله أنتم ملاح وكالكم ملاح ومكانكم ملاح إلا أنه يحتاج إلى
ممعاع طيب فإن الشراب بلا معاع عديمه أولى من وجوده كما قال الشاعر

أدرها بال كبير وبالصغير * وخذها من يد القمر المنير
ولا تشرب بلا طرب فاني * رأيت الخيل تشرب بالصغير

فعند ذلك نهض الشاب صاحب البستان وركب بغلة من بغال أولاد التجار وقاب
ثم عاد معه صبية مصرية * كأنها لبة طرية * أوفضة نقيية * أودينا في صينية
أوغزال في برية * بوجه يحجل الشمس المضية * وعيون بابلية * وحواجب
كأنها قسي مخنية * وخذود وردية * وأسنان أولوية * ومراشف سكرية *
وعيون مرخية * ونهود عاجية * وبطن خصاصية * وأعكان مطوية *
وأرداف كأنها مخدات محشية * وفخذين كالجدول الشامية * وبينهما شئ
كانه صرة في بقعة مطوية * كما قيل فيها

ولو أنها للمشركين تعرضت * رأوا وجهها من دون أصنامهم ربا

ولو أنها في الغرب لا تحت لراهب * تخلى سبيل الشرق واتبع الغربا
ولو تغلت في البحر والبحر مالح * لاصبح ماء البحر من ريقها عذبا
(و كما قال آخر)

أبهي من البدر كعلاء العيون بدت * كأنها قنصتها كصف آساد
أرخت علمها الاله الى من ذوائبها * بيتها من الشعر لم يشدد باوتاد
من ورد وجنتها النيران ما اتقدت * الأبا فئسدة ذابت وأكباد
فلور آها حسان العصر قن لها * على الرأس وقلن الفضل للبادي
(وما أحسن قول بعض الشعراء)

ثلاثة منعتها عن زيارتنا * خوف الرقيب وخوف الحماد المحنق
ضوء الجبين ووسواس الحلى وما * حوت معاطفها من عنبر عبق
هب الجبين بفضل الحكم تستره * والحلى تنرعاه ما حيلة العرق
وتلك الصبية كأنها البدر اذا بدر * في ليلة أربعة عشر * وعلمها بدلة زرقاء
بقناع أخضر * فوق جبين أزهر * تدهش العقول * وتبحر أرباب المعقول *
وهي في غاية الحسن والجمال * ورشاقة القدو الاعتدال * كأنها المرادة بقول الشاعر
أقبلت في غلالة زرقاء * لاذ وردية كلون السماء
فتحققت في الغلالة منها * قر الصيف في ليل إلى الشتاء
(وما أحسن قول الآخر وأجوده)

جاءت مبرقعة فقلت لها سفري * عن وجهك الغم من المنبر الأزهر
قالت اخاف العار قلت لها اقصرى * بحوادث الأيام لا تحبيري
رفعت نقاب الحسن عن وجنتها * فتساقط البلور فوق الجوهري
ولقد هممت بقتلها من حبها * كيما تكون خصيتي في المحشر
ونكون أول عاشقين تحاصمنا * يوم القيامة عند رب أكبر
وأقول طول في الحساب وقوفنا * حتى يطول الى الحميمة منظري
ثم ان الشاب خولى البستان قال لتلك الصبية اعلمى ياسيدة الملاح * وكل كوكب
لاح * أننا مقصدنا بضرورة في هذا المكان الآن تنادى هذا الشاب الملج

سدي على نور الدين فانه لم يات محلنا هذا الا في هذا اليوم فقالت له الصبية ليمتك
كنت اخبرتني لاجل ان اجي بالذي كان معي فقال لها يا سيدتي انا اروح واجي به
اليك فقالت له الصبية افعل ما يدالك فقال لها اعطني اماراة فاعطته منديلا فعند
ذلك خرج سريرا وغاب ساعة زمانية ثم عاد معه كيس اخضر من حبر اطلس
يشكاهن من الذهب فاخذته الصبية منه وحلته ونفضته ففرل منه ثنتان وثلاثون
قطعة خشب ثم ركبت الخشب في بعضه على صورة ذكر في انثى وانثى في ذكر وكشفت
عن معصمها واقامته فصارعودا محكوكا محجورا وصنعة الهنود ثم انحنيت عليه
تلك الصبية انحناء الوالدة على ولدها وزغزغته بانامل يدها فعند ذلك ان العود وورن
ولاما كنه القعدة قد حن * وتذكر المياه التي قدس قته والارض التي نبت منها
وترابي فيها وتذكر الخبارين الذين قطعوه والدهانين الذين دهنوه والتجار
الذين جلبوه والمرالكب التي حملته فصرخ وصاح وعدد وناح وكانها سالتهم عن
ذلك كلة فاجابها بلسان الحال منشد هذه الايات

لقد كنت هو دالبلابل منزلا * اتميل بها وجد او فرعي اخضر
ينوحون من فوقى فعملت نوحهم * ومن اجل ذلك النوح سرى مجهر
رمانى بلاذب على الارض قاطي * وصيرني عودا نحيلا كما تروا
ولكن ضربى بالانامل مخبر * باقى قتميل فى الانام مصبر
فن اجل هذا صار كل منادم * اذا ما رأى نوحى يهيم ويسكر
وقد حنن المولى على قلوبهم * وقد صرت فى أعلى الصدور أصدر
تعانق قدى كل من فاق حسنها * وكل غزال ناعس الطرف أحور
فلا فرق الله المهيم من بيننا * ولا عاش محبوب يصد ويهجر
ثم سكنت الصبية ساعة وبعد ذلك أخذت ذلك العود فى حجرها * وانحنيت عليه
انحناء الوالدة على ولدها * وضربت عليه طرفا عديدة ثم عادت الى طريقته الاولى
وانشدت هذه الايات

لو أنهم جنحوا للصبا وزاروا * لمخط عنه من الاشواق أوزار
وعندليب على غصن يشايره * كأنه عاشق شطت به الدار

قم وانتبه فلما الى الوصل مقمرة * كأنها با اجتماع الشمل أسحار
واليوم في غفلة عنا حواسنا * وقد دعنا الى اللذات أوتار
أما ترى أربعا لله وقد جعت * آس وورد ومنتور ونوار
واليوم قد جعت للحظ أربعة * صب وخل ومشروب ودينار
فاظفر بحظك في الدنيا فانتها * تفنى وتبقى روايات وأخبار
فلما سمع نور الدين من الصبية هذه الايات نظر اليها بعين المحبة حتى كاد لا يملك نفسه
من شدة الميل اليها وهي الاخرى كذلك لانها انظرت الى الجماءة الحاضرة بين من
أولاد التجمار كلهم والى نور الدين فرأته بينهم كالقمر بين النجوم لانه كان رخيم اللفظ
والدلال كامل القد والاعتدال والبهاء والمجال أطف من التسميم وأرق من
من التسميم ثم أنشدت هذه الايات

قما بوجنته وباسم ثغره * وباسم قدر اشتها من سحره
وبابن مطفه ونبل لحاظه * وبياض غرته وأسود شعره
وبمحابب حجب الكرى عن ناظري * وسطاء على بنهيه وباحره
وعقارب قد أرسلت من صدغه * وسعت لقتل العاشقين بهجره
وبورد خديه وآس عذاره * وعقيق مبدسه ولؤلؤ ثغره
وبغصن قامته الذي هو مشمر * رمانه يزهر وجناه بصدره
وبردفه المريج في حركته * وسدونه وبرقة في خصره
وحرير مامسه وخفة ذاته * وبمباحواه من المجال بأسره
ان الشذا قد فاح من أنفاسه * والريح تروى طيبها عن نشره
وكذلك الشمس المنيرة دونه * وكذا الهلال قلامه من ظفره
فلما سمع نور الدين كلام تلك الصبية وشعرها أعجبه نظامها وكان قد مال من السكر
بفعل بحدحها ويقول

عوادة مالت بنا * في نشوة المتبند قالت لنا أوتارها * أنطقنا الله الذي
فلمات كام نور الدين بهذا الكلام * وأنشد هذا الشعر والنظام * نظرت له
تلك الصبية بعين المحبة وزادت فيه عشقا وغراما وقد صارت متعجبة من حسنه وجمال

ورشاقة قدوة واعتداله فلم يملك نفسه ابل احتضنت العود ثانيا وانشدت هذه

الايات يعاتبني على نظري اليه * ويهجرني وروحي في يديه

ويبعـدني ويعلم ما يقبلي * كان الله قد اوحى اليه

كتبت مثاله في وسط كفي * وقالت لناظري عول عليه

فلا عيني ترى عنه بيديلا * ولا قلبي يصبرني لديه

فما قلبي نزعك من فؤادي * لانك بعض حسادي عليه

اذا ما قلت يا قلبي تسلي * فقلبي لم يعل الا اليه

فلما انشدت الصبية تلك الايات تعجب نور الدين من حسن شعرها وبلاغة كلامها

وعذوبة لفظها ولطف نظامها فطار عقله من شدة الغرام والوجد والهيام ولم

يقدر أن يصبر عنها ساعة من الزمان بل مال اليها وضعها الى صدره ضمة العاشق

الولهان فانطبقت عليه وصارت بكايته اليه وقبلته بين عينيه وقبل هوفاها

بعضم القوام ولعب معها في التقبيل كزق الحمام فالتفتت له وفعلت معه مثل

ما فعل معها فهام الحاضر ون وقاموا على اقدامهم فاستحى نور الدين ورفع يده عنها

ثم انها اخذت عودها وضربت عليه طرائق عديدة ثم عادت الى الطريقة الاولى

وانشدت هذه الايات

قريسل من الجفون اذا التشى * عضبها ويزأباله زال اذارنا

ملك محاسنه البديعة جنده * ولدا الطعان قوامه يحكي القنا

لو أن رقعة خصره في قلبه * ما جار قط على الحب ولا جنى

يا قابله القاسي ورقعة خصره * هـ لانقلت الى هنامن ههنا

يا طاذلي في حبه كن عاذري * فلك البقاء بحسنه ولى القنا

فلما سمع نور الدين حسن كلامها وبديع نظامها مال اليها من الطرب ولم يملك

عقله من شدة العجب ثم انه انشد هذه الايات

لقد خلتها شمس الضحى فتجملت * لكن لهيب الحمر منها بجهتي

وماذا عليها الا اشارت فسمت * علمنا باطراف البنان واومت

رأى وجهها الا احى فقال وتاه في * محاسنها اللاتي عن الحسن جات

أهدى التي قد همت شوقاً بحبها * وانك مهذور فقلت هي التي
 رميتي بسهم اللعظ عمداً ومارثت * لمحالي وذلي وانك كماري وغر بني
 فاصبحت مسلوب الفؤاد متيماً * أنوح وأبكي طول يومى وليانى
 فلما فرغ نور الدين من شعره تجعبت الصبية من فصاحته ولطافته وأخذت عودها
 وضربت عليه باحسن حركاتها وأعادت جميع النغمات ثم أنشدت هذه الايات
 وحياء وجهك يا حياة الانفس * لاحات عنك يثت أم لم تبتس
 فلتس جفوت فان طيفك واصل * أو غبت عن عيني فذكرك مؤنسى
 يامم وحشاط رفي وتعلم انتى * أبداً بغير هواك لم استانس
 خمدالك من ورد وريقك خرة * هلا سمعت بها بهذ المجلس
 فعند ذلك طرب نور الدين من انشاد تلك الصبية غاية الطرب وتعب منها غاية
 العجب ثم أجابها على شعرها بهذه الايات

ما أسفرت عن محيا الشمس في الغسق * الا تحجب بدرالتم في الافق
 ولا بدت لعميون الصبح طرتها * الا وعودت ذلك الفرق بالفاق
 خذ عن مجارى دموعى في تسلسها * واروحديث الهوى من أقرب الطرق
 ورب رامية بالنمبل قلت لها * مهـ لا ينبلك ان القلب في فرق
 ان كان دمعى لبحر النيل نسبتـه * فان ودك منسوب الى اللامق
 قالت فهات جميع المال قلت خذى * قالت ونومك أيضاً قلت من حدقى
 فلما سمعت تلك الصبية كلام نور الدين وحسن فصاحته طار عقلها واندهش لها
 وقد احتوى على مجامع قباها فضمته الى صدرها وصارت تقبله تقبيلاً كزق الحمام
 وكذلك هو الا آخر قابلهما بتقبيل متلاحق وليكن الفضل للسابق وبعد ان
 فرغت من تلك التقبيلات أخذت العود وانشدت هذه الايات

ويلاه ويلى من مـ لامة عاذلى * أشكوه أم أشكو اليه تلملى
 ياهاجرى ما كنت أحسب أنى * ألقى الاهانة فى هواك وأنتلى
 عنفت أرباب الصباية بالجوى * وأبجت فيك لعاذلك تذلى
 يالامس كنت ألوم أرباب الهوى * واليوم أعـنر كل صب مبتلى

وان أعترتني من فراقك شدة * أصبحت أدعو الله باسمك يا علي
فلما فرغت تلك الصبية من شـهرها أنشدت أيضا هذين البيتين
قالت لي العشاق ان لم يسقنا * من ريقه ورحيق فيه السلسل
ندعوا له العالمين يجيبنا * ويقول فيه الكل متنايا علي
فلما سمع نور الدين من تلك الصبية هذا الكلام والشعر والنظام تعجب من فصاحة
لسانها وشكرها علي ظرافة افتتانها وأثنى عليها غاية الثناء فلما سمعت الصبية ثناء
نور الدين عليها قامت من وقتها وساعتها علي قدميها وقامت جميع ما كان عليها من
ثياب ومصاغ وتجردت من ذلك كله ثم جلست علي ركبتيه وقبلته بين عينيه وعلي
شامتي خديه ووهبت له جميع ذلك وقالت له اعلم يا حبيب قلبي ان الهدية علي
مقدار هاديتها فقبل نور الدين منها ذلك ثم رده عليها وقبلها في فها وخذديها فلما
انقضى ذلك ولم يدم الا الحى القيوم رازق الطاوس واليوم قام نور الدين من ذلك
المجلس ووقف علي قدميه فقالت الصبية الي ابن ياسيدي فقال لها الي بيت والدي
فخلف عليه اولاد التجار انه ينام عندهم فاني وركب بغلته ولم يزل ساثرا حتى وصل
لي بيت والده فقامت له أمه وقالت له يا ولدي ما سبب غيابك الي هذا الوقت والله
انك قد شوشت علي وعلي والدك بغيابك عنا وقد اشتغل خاطرنا عليك ثم ان أمه
تقدمت اليه لتقبله في فـه فشمته منه رائحة الخمر فقالت لاحول ولا قوة الا بالله
لعلي العظيم يا ولدي كيف بعد الصلاة والعبادة صرت تشرب الخمر وتعصي من اه
لخلق والامر قبين ما هما في الكلام واذا بالوده قد اقبل ثم ان نور الدين ارتقى في
لفراش ونام فقال أبوه ما لنور الدين هكذا فقالت له أمه كان رأسه أوجعته من
لبستان فعند ذلك تقدم له والده ليساله عن وجعه ويسلم عليه فشم منه رائحة الخمر
وكان ذلك التاجر المسمى تاج الدين لا يحب من يشرب الخمر فقال وبالك يا ولدي هل
لمخ بك السفة الي هذا الحد حتى تشرب الخمر فلما سمع نور الدين كلام والده رفع يده
وهو سكران ولطمه بها فجاءت اللطمة بالامر المقدر علي عين والده اليمنى فسالت علي
خده فوقع علي الارض مغشيا عليه واستمر في غشيته ساعة فرشوا عليه ماء الورد فلما

أفاق من غشيشه أراد أن يضربه فغضته أمه فحلف بالطلاق من أمه انه اذا أصبح
الصباح لا يده من قطع يده اليمنى فلما سمعت أمه كلام والده ضاق صدرها وخافت
على ولدها ولم تنزل تدارى والده وتأخذ بخاطرهم الى ان غلب عليه النوم فصبرت الى
أن طلع الغمروأتت الى ولدها وقد زال عنه السكر فقالت له يا نور الدين ما هذا الفعل
البيح الذى فعلته مع والدك فقال لها وما الذى فعلته مع والدى فقالت انك لطمته
بيدك على عينه اليمنى فسالت على خده وقد حلف بالطلاق انه اذا أصبح الصباح
لا يده من يقطع يدك اليمنى فندم نور الدين على ما وقع منه حيث لا ينفعه الندم فقالت
له أمه يا ولدى ان هذا الندم لا ينفعك وانما ينبغى لك أن تقوم فى هذا الوقت
وتهرب وتطلب النجاة لنفسك وتختفى عند خروجك حتى تصل الى أحد من اصحابك
وتنظر ما يفعله الله فانه يغير حاله بعد حال ثم ان أمه فتحت صندوق المال وأخرجت
منه كيسا فيه مائة دينار وقالت له يا ولدى خذ هذه الدنانير واستعن بها على مصالحيك
حالك فاذا فرغت منك يا ولدى فارسل اعلمنى حتى أرسل اليك غيرها واذا راسلتنى
فارسل الى اخبارك سر افعل الله أن يقدر لك فرجا وتعود الى منزلك ثم انها ودعته
وبكت البكاء الشديد الذى ما عليه من مزيد فعند ذلك أخذ نور الدين كيس الدنانير
من أمه وأراد ان يخرج فرأى كيسا كبيرا قد نسيت به أمه بجانب الصندوق فيه ألف
دينار فاخذ نور الدين ثمرا بطا الاثنى عشر على وسطه وخرج من الزقاق وتوجه قبل
القهر الى جهة بولاق فلما أصبح الصباح وقامت الخلائق توحيد الملك الفتحا وخرج
كل واحد منهم الى مقصده ليحصل ما قسم الله تعالى له كان نور الدين وصل الى بولاق
فصار يمشى على ساحل البحر فرأى مركبا سقاها ممدودة والناس تطلع فيها وتنزل
منها ومراسيها أربع مائة قوقة فى البر ورأى البحرية واقفين فقال لهم نور الدين الى
أين أنتم مسافرون فقالوا له الى مدينة اسكندرية فقال لهم نور الدين خذونى معكم
فقالوا أهلا وسهلا ومرحبا بك يا شاب يا ملاح فعند ذلك نهض نور الدين من وقته
وساعته ومضى الى السوق وأخذ ما يحتاج اليه من زوائد وفرش وغطاء ثم رجع
الى المركب وكانت تلك المركب تجهزت للسفر فلما نزل نور الدين فى المركب لم يملك
بالقليل الاوسارت من وقتها وساعتها ولم تنزل تلك المركب مائة حتى وصلت الى

مدينة رشيد فلما وصلوا الى هناك رأى نور الدين زورقا صغيرا سائرا الى الاسكندرية
فقال فيه وعدى الخبايع ولم يزل سائرا الى ان وصل قنطرة تسمى قنطرة الجحامي فطلع
فورا الى من ذلك الزورق ودخل من باب يقال له باب السدرة وقد ستر الله عليه فلم
ينظره احد من المواقفين بالباب فشى نور الدين حتى دخل مدينة الاسكندرية
فراها مدينة حصينة الاسوار حسنة المنزهات تاذل سكانها وترغب في استيطانها
قدولى عنها فصل الشتاء يبرده وأقبل عليها فصل الربيع يورده وازدهت أزهارها
وأورقت أشجارها وأينعت أنهارها وتدقت أنهارها وهي مدينة مائة الهندسة
والقياس وأهلها أجناد من خيار الناس اذا غلقت أبوابها أمنت أصحابها وهي
كما قيل فيها هذه الايات

قد قامت يوما الخجل * له مقال فصيح

اسكندرية صفها * فقال ثغر ملاح

قات وفيها معاش * فقال ان هب ربح

وقال فيها ايضا بعض الشعراء

اسكندرية ثغر * رضاه يستطاب

ما أحسن الوصل فيها * ان لم يصبها غراب

عشى نور الدين في تلك المدينة ولم يزل ماشيا فيها الى ان وصل الى سوق النجارين ثم الى
سوق الصرافين ثم الى سوق النقلية ثم الى سوق الفكها نية ثم الى سوق العطارين
وهو يتعجب من تلك المدينة لان وصفها قد شاكل اسمها فيمنها هو وعشى في سوق
العطارين واذا برجل كبير السن نزل من دكانه وسلم عليه ثم أخذه من يده ومضى به
الى منزله فرأى نور الدين زقا قاءا لهما مكنوسا مرشوشا قد ذهب عليه النسيم وراق
وظلمته من الاشجار أوراق وفي ذلك الزقاق ثلاث دور وفي صدر ذلك الزقاق دار
أساسها راسخ في الماء وجدارها شاهقة الى عنان السماء قد كسوا الساحة التي
قدامها ورشوها وتشم روائح الأزهار قاصدوها يبقا بلها النسيم كأنه من جنات النعيم
فاول ذلك الزقاق مكنوس مرشوش وآخرها رخام مفروش فدخل الشيخ بنور
الدين الى تلك الدار وقدم له شيئا من الماكول وأكل معه فلما فرغ من الأكل قال له

الشيخ مني كان القدوم من مدينة مصر فقال له يا وادي في هذه الليلة قال له ما اسمك
قال علي نور الدين فقال له وما اسم أميك فقال له تاج الدين فقال له الشيخ يا وادي
يا نور الدين يلزمي الطلاق ثلاثا انا اناك مادمت مقيما في هذه المدينة لا تغارقني
وانا اخل لك موضعا تسكن فيه فقال له نور الدين يا سيدي الشيخ زدني بك معرفة
فقال يا وادي اعلم اني دخلت مصر في بعض السنين بتجارة فبعتهافيها واشتريت
متجرا آخر فاحتوت الى الف دينار فوزنها عني والدك تاج الدين من غير معرفة له بي
ولم يكتب علي بها منشورا وصبر علي بها الى ان رجعت الى هذه المدينة وارسلتها اليه
مع بعض علماني ومعها هدية وقد رأيتك وانت صغير وان شاء الله تعالى اجازيك
ببعض ما فعل والدك معي فلما سمع نور الدين هذا الكلام اظهر الفرح والابتسام
واخرج الكيس الذي فيه الالف دينار واعطاه لذلك الشيخ وقال له خذها وديعة
عندك حتى اشترى بها شيا من البضائع لا تجرفيه ثم ان نور الدين اقام في مدينة
اسكندرية مدة ايام وهو يتفرج في كل يوم في شارع من شوارعها وياكل ويشرب
ويتلذذ ويطرب الى ان فرغت منه المائة دينار التي كانت معه برسم النفقة فاتي الى
الشيخ العطار لياخذ منه شيئا من الالف دينار ينفقه فلم يجد في الدكان فعلم ان
الدكان ينتظره الى ان يعود وصار يتفرج على التجار ويتامل ذات اليمين وذات اليسار
فبينما هو كذلك واذا باجمنى قد اقبل على السوق وهو راكب على بغلة وخلفه
جارية كأنها فضة نقية او بلطية في فسقية او غزاله في برية يوجهه جبل الشمس
المضية وعيون بابلية ونهود عاجية واسنان لؤلؤية وبطن خصاصة واعطاف
مطوية وسيقان كاطراف لية كاملة الحسن والجمال ورشاقه القدوالاعتدال
كما قال فيها بعض واصفها

كانها مثل ما تهواه قد خلقت * في رونق الحسن لا طول ولا قصر
الورد من خدها يحمر من خجل * والغصن من قدها يزهر وبه الثمر
والبدر طلعتها والمسك نكهتها * والغصن قامتها مثلها بشر
كانها افرغت من ماء لؤلؤة * في كل جارحة من جسمها حمر
ثم ان الاجمنى نزل عن بغلته وانزل الصبية وصاح على الدلال فخرين يديه فقال له

خذ هذه الحجار بة وفاد عليها في السوق فاخذ الدلال ونزل بها الى السوق وغاب ساعة
ثم عاد ومعه كرسى من الابنوس مزركش بالعاج الابيض فوضعه الدلال على
الارض وأجلس عليه تلك الصبية ثم كشف القناع عن وجهها فبان من تحته وجه
كأنه ترس دبلى أو كوكب درى وهى كأنها البدر اذا بدر في ليلة أربعة عشر
بغاية الجمال الباهر كما قال فيها الشاعر

قد عارض البدر جهلا حسن صورتها * فراح منكسفا وانشق بالغضب
وسرحة البان ان قيدت بقامتها * تبت يداها اذا جمالة الحطب
وما أحسن قول الآخر

قل للملحمة في النجار المذهب * ماذا فعلت بما بدم تهرب
نور النجار ونور وجهك تحته * هزما بضوئهما جيوش الغيب
واذا أتى طـر في ليمرق نظرة * في الخـد حراس رمته بكوكب

فعند ذلك قال الدلال للتجار كم دفعتم في درة الغواص وقنية القناص فقال له تاجر
من التجار على مائة دينار وقال آخر بمائتين وقال آخر بثلاثمائة ولم يزل التجار
يتزايدون في تلك الجارية الى أن أوصلوا ثمنها الى تسعمائة وخمسين دينارا وتوقف
البيع على الايجاب والقبول فعند ذلك أقبل الدلال على الاعجمى سيدها وقال له
ان جاريتهك بلغ ثمنها تسعمائة وخمسين دينارا فهل تبيع وتقبض لك الثمن فقال
الاعجمى هل هي راضية بذلك وانى أحب مراعاة خاطرها الا فى ضعفتم في هذه
السفرة وخدمتمنى هذه الحجار بة فحاجة الخدمة فحافت انى لا أبيعها الا لمن تشتمى
وتريد وجعلت يبعها بيدها فشاورها فان قالت رضيت فبعها لمن أرادته وان
قالت لا فلا تبعها فعند ذلك تقدم الدلال اليها وقال لها يا سيده الملاح اعلمى ان
سيدك قد جعل يبعك بيده وقد بلغ ثمنك تسعمائة وخمسين دينارا افتاذنين لى أن
أبيعك فقالت الجارية للدلال ارنى الذى يريد أن يشترينى قبل ان يعقاد البيع فعند
ذلك جاء الدلال به الى رجل من التجار وهو شيخ كبير هرم فنظرت اليه الجارية
ساعة زمانية وبعد ذلك التفتت الى الدلال وقالت له يا دلال هل أنت مجنون أو
مصاب فى عقلك فقال لها الدلال لاى شئ يا سيده الملاح تقولين لى هذا الكلام

فقلت له الجارية أحمل لك من اللسان تبيع مثل لهذا الشيخ الهرم الذي قال في
شأن زوجته هذه الأبيات

تقول لي وهي غضيبي من تلالها * وقد دعيتني إلى شيء ما كانا
ان لم تنسكني نيك المرء زوجته * فلا تلتني إذا أصبحت قرنانا
كان أبرى شمع من رعاوته * فكلماء عركته راحتي لانا
﴿وقال في ابنة أبيض﴾

لي أبر ينام لثوما وشدوما * كلما نلت من حبيب وصالا
وإذا ما غدوت في البيت فردا * طلب الطعن وحده والنزالا
﴿وقال في ابنة أبيض﴾

ولي أبر سوء كسير الجفا * يعامل باللؤم من بكرمه
إذا نمت قام وانعتنا * م فلارحم الله من برجه

فلا سمع شيخ التبعار من تلك الصبية هذا الهجو واعتاظ الغيظ الشديد الذي ما عليه
من مزيد وقال للدلال يا انفس الدلالين ما حثت لنا في السوق الا بجمارية مشومة
تجترى على وتهجوني بين التجار فعند ذلك أخذها الدلال وانصرف عنه وقال لها
يا صديقي لا تكوفي قلامة الادب ان هذا الشيخ الذي هجوتيه هو شيخ السوق
ومحنته وصاحب مشورة التجار فضحكك وأنشدت هذين البيتين
بصلح للحكام في عصرنا * وذلك للحكام مما يجب
الشنق للوالى على بابيه * والضرب بالدرة للمعتب

ثم ان تلك الجارية قالت للدلال والله يا سيدى أنا لا أباغ لهذا الشيخ فبعضي لغيره لانه
ربما سجد منى فباعنى الى آخر فاصبر متمتة ولا ينبغي لى أن أدنس نفسى بالامتهان
وقد علمت أن امرئى مفوض الى فقال لها الدلال سمعنا وطاعة ثم توجه بها الى
رجل من التجار السكار فلما وصل بها الى ذلك الرجل قال لها يا سيدتى هل أبيعك
لسيدى شريف الدين هذا بنسب عمامة وخمسين ديناراً فنظرت اليه الجارية بقرآته
شعراً ولكن لم يمتعه مصبوغه فقالت للدلال هل أنت مجنون أو مصاب في عقلك
حتى تبغى لهذا الشيخ الغافى فهل أنا من كتكت المشاق أو من مهلهل الاخلاق

حتى تطرفني على شيخ بعد شيخ وكلاهما كجدار آيل الى السقوط أو عفر بت
 محفة النجم بالهبوط أما الاول فانه نطق لسان الحال فيه بقول من قال

طلبت قبلتها في نفسها فبكت * بدر دمع على الخدين منتظم
 ثم اتت كغزال وهي قائلة * لا والذى أوجد الاشياء من عدم
 ما كان لي في بياض الشيب من أرب * أفى الحياة يكون القطن حشوفى
 ﴿وما أحسن قول الشاعر﴾

قالوا بياض الشعر نور ساطع * يكسو الوجوه مهابة وضياء
 حتى بدا خط المشيب بمفرق * فوددت أن لأعدم الظلماء
 لو أن لحية من يشيب صحيفة * يعاده ما اختارها بياضه

﴿وأحسن منه قول الآخر﴾

ضيف المبراسى غير محتم * السيف أحسن فعلا منه باللم
 أبعد بعدت بياضا لا بياض له * لانت أسود فى عيني من الظلم
 وأما الآخر فانه ذو عيب وريب * ومسود وجهه الشيب قد أتى فى خضاب شبيهه
 باقج مين وأنشدت هذين البيتين

قالت اراك خضبت الشيب قلت لها * كتمته عنك يا عمى ويا بصرى
 فقها فقها ثم قالت ان ذاك عجب * تكاثر الغش حتى صار فى الشعر

﴿وما أحسن قول الشاعر﴾

يا من يخضب بالسواد مشيبه * كي يستقر له الشباب ويحصل
 هالك اختضب بسواد حظى مرة * ولك الضمان بانه لا ينصل

فلما سمع الشيخ الذى صبغ لحيته من تلك الجارية هذا الكلام اغتاط الغيظ
 الشديد الذى ما عليه مزيد وقال يا أنحس الدالين ما جئت فى هذا اليوم سوقنا
 الا بجارية سفينة تسفه على كل من فى السوق واحدا بعد واحد وتهوهم بالاشعار
 والكلام الفشار ثم ان ذلك التاجر نزل من دكانه وضرب الدلال على وجهه
 فاخذها الدلال ورجع بها وهو غضبان وقال والله ما رأيت عمري جارية أقل حياء
 منك وقد قطعت رزقى ورزقك فى هذا النهار وقد بغضنى من أجلك جميع

التجار فرآهم في الطريق فوجد رجل من التجار فزاد في ثمنها عشرة دنانير وكان اسم ذلك التاجر شهاب الدين فاستاذن الدلال التجار ببيع في البيع فقالت أرني إياه حتى أنظر إليه وأسأله عن حاجة فإن كانت تلك الحاجة في بيته فأتنا بأباع له والأفلاخ فلاها الدلال واقفة ثم تقدم إليه وقال له ياسيدي شهاب الدين اعلم أن هذه الجارية بعت لي إنها تريد أن تسالك عن حاجة فإن كانت عندك فاتها تباع لك وها أنت قد سمعت ما قالته لاصحابك من التجار وأنا في والله خائف أن أحج بها إليك فتم عمل معك مثل ما عملت مع جيرانك وأبقى أنا معك مفضوحا وإن أذنت لي في الحجىء بها إليك فعلت فقال له انتني بها فقال الدلال سمعنا وطاعة ثم ذهب الدلال وأتى بالجارية إليه فنظرت الجارية وقالت له ياسيدي شهاب الدين هل في بيتك مدورات محشوة بقطاعة فروا والسحاب فقال لها نعم ياسيدة الملاح عندي في البيت عشر مدورات محشوة بقطاعة فروا والسحاب فما لله عليك ماذا تصنعين بهذه المدورات فقالت أصبر عليك حتى ترقدوا جعلها على فك وأنفك حتى تموت ثم إنها التفتت إلى الدلال وقالت له يا أخس الدلالين كأنك مجنون حتى تعرضني من منذ ساعة على اثنين من الشيوخ في كل واحد منهما عيبان و بعد ذلك تعرضني على سيدى شهاب الدين وفيه ثلاثة عيوب الأول أنه قصير والثاني أن أنفه كبير والثالث أن لحية طويلة وقد قال فيه بعض الشعراء

مارأينا ولا سمعنا بشخص * مثل هذا بين الخلائق أجمع
فله لحية ذراع وأنف * طول شبر وقامة طول أصبع

وقال بعضهم أيضا

منارة الجامع في وجهه * كهيئة الخنصر في الخاتم
لودخل العالم في أنفه * أصبحت الدنيا بلا عالم

فلما سمع التاجر شهاب الدين من الجارية ذلك الكلام نزل من الدكان وأخذ بطوق الدلال وقال له يا أخس الدلالين كيف تأتي البنا بيجارية تو بخنا وتهجوننا واحدا بعدوا حد بالاشعار والكلام الفشار فعند ذلك أخذها الدلال وذهب من بين يديه وقال لها والله طول عمري وأنا في هذه الصناعة ما رأيت جارية أقل ادباً منك

ولا انحس على من نحمك لانك قد قطعت رزقي في هذا اليوم ولا رجحت منك الا
الصفع على اتقوا ولا اخذوا بطوق ثم ان الدلال وقف بتلك الجارية ايضا على تاجر
صاحب عبيد وغلان وقال لها اتباعين لهذا التاجر سيدي علاء الدين فنظرته
فوجدته احب فقالت ان هذا احب وقد قال فيه الشاعر

قصرت منا كبه وطل فقاره * فحماه شيطان يصادف كوكبا
وكانه قد خاف اول مرة * واحس تانية فصار محببا
(وقال فيه ايضا)

اذ رقي احد بكم بغلة * صار بها بين الوري مثله
اماله الضحك فلا تعجبوا * ان جفنت من تحته البغلة

(وقال فيه ايضا بعض الشعراء)

ولرب احب زاد في حدياته * فبعضها وطامة العيون تمعه
فكانه غصن تقاص يابس * ولواه من طول المدى اترحه

فعند ذلك اسرع الدلال اليها واخذها واتى بها الى تاجر آخر وقال لها اتباعين لهذا
فنظرت اليه فوجدته اعشى فقالت ان هذا اعشى كيف تبين لي له وقد قال فيه
بعض الشعراء رمده امراضه * هدت قواه الحينه
يا قوم قوموا فانظروا * هذا القذى في عينه

فعند ذلك اخذها الدلال واتى بها الى تاجر آخر وقال لها اتباعين لهذا فنظرت اليه
فرات حيمته كبيرة فقالت للدلال وبلك ان هذا الرجل كبش ولا يكن طامع ذيله من
حلقه كيف تبين لي له يا انحس الدلالين اما سمعت ان كل طويل الذقن قليل العقل
وعلى قدر طول اللحية يكون نقصان العقل وهذا امر مشهور بين العقلاء كما قال
بعض الشعراء

ما رجل طالت له لحيته * فزادت اللحية في هيبته
الا وما ينقص من عقله * يكون طولاً زاد في لحيته

(وكما قال بعض الشعراء ايضا)

لنا صديق وله لحيته * طولها الله بلا فائده

كانها بعض ليالى الشتاء * مطوية مظلمة باردة

فعند ذلك أخذها اللدال ويرجع فقالت له الى أين تتوجه في فقال لها الى سيدك
الاعمى وكفانا ما جرى لنا بسببك في هذا النهار وقد تسببت في منع رزقي ورزقه
بقلة أدبك ثم ان الجارية نظرت في السوق والتفتت يمينا وشمالا فوقع نظرها
بالامر المقدر على نور الدين على المصرى فرأته شابا له عاتق الخمد رشيق القدر
وهو ابن أربعة عشر سنة بديع الحسن والجمال والظرف واللدال كأنه البدر
اذا بدر في ليلة أربعة عشر يجبين أزهر وخذأجر وعنق كالدرمر وأسنان كالجواهر
وريق أحلى من السكر كما قال فيه بعض واصفيه

بدت لتحاكى حسنه وجماله * بدور وغزلان فقلت لها قفى
رويدك يا غزلان لا تشبهى * بهذا وبالقارلات تكفى
وما أحسن قول بعض الشعراء

ومنهف من شمره وحينه * تغدو الورى في ظلمة وضياء
لا تنكروا الخال الذى في خده * كل الشقيق بنقطة سوداء

فلما نظرت تلك الجارية الى نور الدين حال بينهما وبين عفاها ووقع في خاطرها
موقعا عظيما وتعاق قلبها بمحبتته والتفتت الى اللدال وقالت له هل هذا الشاب
التاجر الذى هو جالس بين التجار وعاليه الفرجية الجوخ العودى ما زادنى عنى
شيا فقال لها اللدال يا سيدة الملاح ان هذا الشاب غريب مصرى ووالده من أكابر
التجار بمصر وله الفضل على جميع تجارها وأكبرها وله مديرة في هذه المدينة
وهو مقيم عند رجل من أصحاب أبيه ولم يتكلم فيك بزيادة ولا نقصان فلما سمعت
الجارية كلام اللدال نزعته من أصبعها خاتم باقوت منمنا وقالت لللدال
أوصلنى عنده هذا الشاب الملاح فان اشترانى كان هذا الخاتم لك في نظير تعبك في هذا
اليوم معنا ففرح اللدال وتوجه بها الى نور الدين فلما صارت عنده تأملته فرأته كأنه
بدر تمام لانه ظريف الجمال رشيق القدر والاعتدال كما قال فيه بعض واصفيه

صفاقى وجهه ماء الجمال * ومن الحاطه رمى النبال
ويشرب كل صب ان سقاه * بين صدوده والوصل حالى

ففرته وقامتة وعشقي * كمال في كمال في كمال
وان غلائل الاثواب منه * مرززة على طوق المهلال
ومقلته وخلاء ودهي * ليال في ليال في ليال
وطاجبه وطلعتة وجمي * هلال في هلال في هلال
وطافت مقلناه بكاس نجر * على العناق ان يمرر حلالى
وارشفي على ظمنا لالا * بباسم نغره يوم الوصال
فقتلى عنده ودمي لديه * حلال في حلال في حلال

ثم ان الجارية نظرت الى نور الدين وقالت له ياسيدي بالله عليك أما أنا ما همة فقال
لها ياسيدة الملاح وبدر كل كوكب لاج وهل في الدنيا أحسن منك فقالت له
الجارية ولاى شئ رأيت التجار كلهم زادوا في ثمنى وأنت ساكت ما تكلمت بشئ
ولازدت في ثمنى دينار واحد اكانى ما أعجبتك ياسيدي فقال لها ياسيدي لو كنت
في بلدى كنت اشترى بك بجميع ما تملكه يدي من المال فقالت له ياسيدي
أنا ما قلت لك اشترى على غير مرادك ولكن لو زدت في ثمنى شيئا لجرت بخاطري ولو
كنت لا تشترى لاجل أن تقول التجار لولا أن هذه الجارية ما همة ما زاد فيها هذا
التاجر المصرى لان أهل مصر لهم خبرة بالجوارى فعند ذلك استخى نور الدين من
كلام الجارية الذى ذكرته واجرو وجهه وقال للدلال كم بلغ ثمن هذه الجارية قال
بلغ ثمنها تسعة مائة وخمسين ديناراً غير الدلالة وأما قانون السلطان وأنه على البائع
فقال نور الدين للدلال خذها على بالف دينار دلالة وثنا فبادرت الجارية وتركت
الدلال وقالت بعت نفسي لهذا الشاب الملاح بالف دينار فسكت نور الدين فقال
واحد بعناه وقال آخر يستاهل وقال آخر ماعون ابن ماعون من يزيد بعد هذا
وقال آخر والله انهما يصلحان لبعضهما فلم يشعر نور الدين الا والدلال أحضر القضاة
والشهود وكتبوا عقد البيع والشراء فى ورقة وفاولها نور الدين وقال له تسلم
جاريته الله يجعلها مباركة عليك لا تصلى الا لك ولا تصلى أنت الا لها وأنشد
الدلال هذين البيتين أنته السعادة منقادة * اليه تجر جراً ذباليها
فلم تك تصلى الا له * ولم يك يصلى الا لها

فبعد ذلك استخفى نور الدين من التجار وقام من وقته وساعته ووزن الالف دينار
التي كان وضعها وديعة عند العطار صاحب أبيه وأخذ الجارية وأتى بها الى البيت
الذي أسكنه فيه الشيخ العطار فلما دخلت الجارية البيت رأت فيه بساطا خلتها
ونظما عتيقا فقالت له باسمدي هل أنا مالي منزلة عندك حتى تجعلني في غير بيتك
الأصلي الذي فيه مصالحك ولاي شيء ما دخلت بي عند أريك فقال لها نور الدين والله
باسيدة الملاح ما هذا بيتي الذي أنا فيه ولكنه ملك شيخ عطار من أهل هذه المدينة
وقد أخلاه لي وأسكنني فيه وقد قلت لك انني غريب وانني من أولاد مدينة مصر
فقالت له الجارية باسمدي أقل البيوت يكفي الى أن تطلع الى بلدك ولكن
باسمدي بالله عليك أن تقوم وتأتي لنا بشيء من اللعم المشوي والمدام والنقل
والفاكهة فقال لها نور الدين والله باسميدة الملاح ما كان عندي من المال غير
الالف دينار التي وزنتها في عنك ولا أملاك غير تلك الدنانير شيئا من المال وكان معي
بعض دراهم صرفتها بالامس فقالت له أما لك في هذه المدينة صديق تقترض منه
خمسين درهما وتأتيني بها حتى أقول لك أي شيء تفعل بها فقال لها مالي صديق
سوى العطار ثم قام من وقته وتوجه الى العطار وقال له السلام عليك يا عم فرد عليه
السلام وقال له يا ولدي أي شيء اشتريت بالالف دينار في هذا اليوم فقال له
اشتريت بها جارية فقال له يا ولدي هل أصابك جنون حتى تشتري جارية واحدة
بالالف دينار بالبيت شعري ما جنس هذه الجارية فقال له نور الدين يا عم انها جارية
من أولاد الافرنج فقال له الشيخ اعلم يا ولدي ان خيار أولاد الافرنج عندنا في هذه
المدينة ثمنه مائة دينار ولكن والله يا ولدي قد علمت عليك حيلة في هذه الجارية
فان كنت أحببتا فبت عندها في هذه الليلة واقض غرضك منها واصبح فانزل بها
السوق وبعها ولو كنت تخمرفها مائة دينار وقد رأتها غرقت في البحر أو طلع
عليك المصوف في الطريق فقال نور الدين كلامك صحيح ولكن يا عم أنت
تعرف أنه ما كان معي غير الالف دينار التي اشتريت بها هذه الجارية ولم يبق
معني شيء انفقته ولا درهم واحد وانني أريد من فضلك واحسانك أن تقرضني
خمسين درهما أنفقها الى غدا فيبيع الجارية وأردتها لك من عندها فقال الشيخ

أعطيك يا ولدي على الرأس والعين ثم وزن له خمسين درهما وقال له يا ولدي أنت شاب صغير السن وهذه الجارية مريحة وربما تعاقبها قلبك فما بهمون عليك أن تبعها وأنت ما تملك شيئا تنفقه فتفرغ منك هذه الخمسون درهما فافتاتيني فأقرضك أول مرة وثاني مرة وثالث مرة إلى عشرة مرات فإذا أتيتني بعد ذلك فلا أرد عليك السلام الشرعي وتضيع محبتنا مع والدك ثم ناوله الشيخ خمسين درهما فأخذها نور الدين وأتى بها إلى الجارية فقالت له يا سيدي روح إلى السوق في هذه الساعة وهات لنا بعشرين درهما حريرا ملونا خمسة ألوان وهات لنا بثلاثين درهما محار وخيزا وفاكهة وشرابا ومشمشوما فعند ذلك ذهب نور الدين إلى السوق واشترى كل ما طلبته تلك الجارية وأتى به إليها فقامت من وقتها وساعتها وشمرت عن يديها وطبخت طعاما فآخرا وأتقنته غاية الاتقان ثم قدمت له الطعام فاكل وأكلت معه حتى اكتفيا ثم قدمت المدام وشربت هي وإياه ولم تنزل تسقيه وتوانسه إلى أن سكر فقامت الجارية من وقتها وساعتها وأخرجت من بقمجتها جرابا من أديم طائفي وفتحته وأخرجت منه مسمارين ووقعت فعملت شغلها إلى أن فرغ فصار زنارا ملحا فلقته في خرقة بعد صقله وتنظيفه وجعلته تحت المخذة ثم قامت فتعرت ونامت بجانب نور الدين وكبسته فانتبه من نومه فوجد بجانبه صديقة كأنها فضة نقيصة أنعم من الحرير وأطرى من اللبنة وهي أشهر من علم وأحسن من حجر النعم نجاسية القدر قاعدة النهدي بحواجب كأنها قسي السهام وعيون كأنها عيون غزلان وخدود كأنها سقائيق النعمان وبطن كأنها صبية الاعكان وسرة تسع أوقية من دهن البان ونفذين كأنهما مخدتان محشوتان من ريش النعام وبينهما شيء يكلم عن وصفه اللسان وتنسكب عند وصفه العبرات فكان الشاعر قصدها بهذه الأبيات

فن شعرها الليل ومن فرقها فجر * ومن خدها ورد ومن ريقها خمر

ومن وصلها ماوى ومن هجرها لظى * ومن تغرها درو ومن وجهها بدر

﴿وما أحسن قول بعض الشعراء﴾

يدت قرا وما ست غصن بان * وفاحت عنبرها ورنت غزالا

كان المحرن مشغوف بتقلي * فساعة هجرها صمد الوصلا
لها وجه يفرق على السريا * ونور جبينها أفاق الهللا
وقال بعضهم أيضا

سفرن بدورا واقطين أهلة * ومن غصونا والتفتن جا ذرا
وفيهن كعلا العيون لحسنا * تود الثريا أن تكون لها ثرى
فعند ذلك التفت نور الدين من وقته وساعته الى تلك الجارية وضعا الى صدره
ومص شفها الفوقية بعد ان مص التحتية ثم زرق اللسان بين الشفتين وقام اليها
فوجد هادرة ما تقبت ومطية لغيره ما ركبت فزال بكارتها ونال منها الوصال
وانعقدت بينهما المصبة بلا انفكاك ولا انفصال وتابعت في خلدتها تعبيلا كوقع
المحصى في الماء ورهزا كطعن الرماح في المهرة الشعو اعلان نور الدين كان مشتتافا
الى اعتناق الحور ومص الثغور وغمز الحصور وعض الخدود وضم النهود
مع حركات مصرية وغنج يمانية وشهيق حبشية وفتور هندية وعلمة توبية وتبخير
ريفيه وانين دمياطية وحرارة صعيدية وفترة سكندرية وكانت هذه الجارية
جامعة له هذه الخصال مع قرط الجمال والدلال كما قال فيها الشاعر المفضل

هذي التي انا طول الدهر ناسيها * فلا جنحت الى من ليس يدينها
كانها البدر في تكوين صورتها * سبحان خالقها سبحان بارئها
ان كان ذنبي عظيما في محبتها * فليس لي توبة يوما ارجيها
قد صيرتني حزينا ساهرا دنقا * والقلب قد حار فكرا في معانيها
وانشدت بيت شعر ليس يعرفه * الا فتى اعوا في الشعر برويها
لا يعرف الشوق الامن يكابده * ولا الصبابة الامن يعانيها
ثم نام نور الدين مع تلك الجارية الى الصباح في لذة وانسراح لابسين حال العناق
محكمة الازرار آمنين طوارق الليل والنهار وقد باتا على احسن حال ولم يخشيا
من احد الوصال ولا كثرة القيل والقال كما قال فيها الشاعر المفضل
زر من نصب ودع مقالة حاسد * ليس المحسود على الهوى بمساعد
لم يخلق الرحمن احسن منظرا * من عاشقين على فراش واحد

متفانتين عليهما جعل الرضا * متوسدين بمعصم وبساعده
 واذا تالفت القلوب على الهوى * فالناس تضرب في حديد بارد
 يا من يلوم على الهوى أهل الهوى * هل تستطيع صلاح قلب فاسد
 واذا صفالك من زمانك واحد * نعم الصديق وعش بذلك الواحد
 فلما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح انبته نور الدين من نومه فراها أحضرت
 الماء فاعتسل هو واياها وادى ما عليه من الصلاة به ثم أتته بما تيسر من الماء كؤل
 والمشروب فاكل وشرب ثم أدخلت الجارية يدها تحت المخدة وأخرجت الزنار الذي
 صنعه بالليل وناولته اياه وقالت له يا سيدي خذ هذا الزنار فقال لها من أين هذا
 الزنار فقالت يا سيدي هو الحجر الذي اشتريته البارحة بالعشرين درهما فقم
 واذهب به الى سوق البهيم وأعطه للدلال لينادي عليه ولا تبعه الا بعشرين ديناراً
 سالمه لئلا يقال لها نور الدين يا سيده الملاح هل شي بعشرين درهما يباع بعشرين
 ديناراً يعمل في ليلة واحدة فقالت له الجارية يا سيدي أنت ما تعرف قيمة هذا
 ولكن اذهب به الى السوق وأعطه للدلال فاذا نادى عليه الدلال ظهرت لك قيمته
 فعند ذلك أخذ نور الدين الزنار من الجارية وأتى به الى سوق الاعاجم وأعطى الزنار
 للدلال وأمره أن ينادي عليه وقد نور الدين على مصطبة وكان فغاب الدلال عنه
 ساعة ثم أتى اليه وقال له يا سيدي قم فاقبض ثمن زنارك فقم بالعشرين ديناراً سالمه
 لئلا يفسد مع نور الدين كلام الدلال تعجب غاية العجب واهتمت من الطرب وقام
 ليقبض العشرين ديناراً وهو ما بين مصدق ومكذب فلما قبض الدنانير ذهب من
 ساعته واشترى بها كاهاً حراً من سائر الألوان لتعمله الجارية كله زنانياً ثم رجع الى
 البيت وأعطها الحجر برو وقال لها اعلميه كله زنانياً وعلمي ايضاً حتى اعلم معك فاني
 طول عمري ما رأيت صنعة أحسن من هذه الصنعة ولا أكثر كسباً منها قط وانها
 والله أحسن من التجارة بالف مرة فضحكت الجارية من كلامه وقالت له يا سيدي نور
 الدين امض الى صاحبك العطار واقترض منه ثلاثين درهما وفي غدا دفعها له من
 ثمن الزنار مع الخمسين درهما التي اقترضتها منه قبلها فقام نور الدين وأتى الى صاحبه
 لعطار وقال له يا عم اقترضني ثلاثين درهماً وفي غدا ان شاء الله تعالى أجي لك بالثمانين

درهما جلة واحدة فعند ذلك وزن له الشيخ العطار ثلاثين درهما فاخذها نور الدين
 واتى بها الى السوق واشترى بها الخما وخبزاً ونقلاً وفاكهة ومشحوماً ومشروباً كما فعل
 بالامس واتى به الى الجارية وكان اسم تلك الجارية مريم الزنارية فاخذت اللحم
 وقامت من وقتها وساعتها وهيات طعاماً فاخرا ووضعته قدام سيدها نور الدين ثم
 بعد ذلك هيات سفرة المدام وتقدمت هي واياه وصارت تملأ وتسقيه وهو يلا
 ويسقيه فلما لعب المدام بعقلهما أعجبها حسن لطافته ورقة معانيه واشتدت هذين
 البيتين أقول لاهيف حيا بكاس * لها من مسك نكهته ختام
 أمن خديك تعصر قال كلا * متى عصرت من الورد المدام
 ولم تزال تلك الجارية تنادم نور الدين وينادىها وتعاطيه الكاس والطاس وتطلب
 أن يلا لها ويسقيه ما تطيب به الانفاس واذا وضع يده عليها تتمتع منه دلالاً وقد
 زادها السكر حسنا وجمالاً وأنشدت هذين البيتين

وهيفاء تهوى الراح قالت لصاحبها * بمجلس أنس وهو يخشى ملالها

إذا لم تدر كاس المدام وتسقني * أبيتك مهجور الخفاف ملالها

ولم يزال كذلك الى ان غلب عليه السكر ونام فقامت هي من وقتها وساعتها وعملت
 شغلها في الزنار على جرى عاداتها ولما فرغت من عمالها فيه أصلحته ولغته في ورقة ثم
 نزعته ثيابها ونامت بجانبه الى الصباح وكان ما بينهما ما كان من الوصال ثم قام نور
 الدين وقضى شغله وناولته الزنار وقالت له امض به الى السوق وبعه بعشرين ديناراً
 كما بعت نظيره بالامس فعند ذلك أخذه ومضى به الى السوق وباعه بعشرين ديناراً
 واتى الى العطار ودفع له الثمانين درهما وشكره على فعاله معه ودعا له فقال له يا ولدي
 هل أنت بعت الجارية فقال نور الدين كيف أبيع روحى من جسدى ثم انه حكى له
 الحكاية من المبتدى الى المنتهى وأخبره بجميع ما جرى له من أوله الى آخره
 ففرح الشيخ العطار بذلك الفرح الشديد الذى ما عليه من مزيد وقال له والله يا ولدي
 انك قد فرحتنى وان شاء الله تعالى أنت بخير دأتما فانى اود لك الخير لمحبتى لو اذ لك وبقاء
 محبتى معك ثم ان نور الدين فارق الشيخ العطار وراح من وقتها وساعتها الى السوق
 واشترى اللحم والفاكهة والشراب وجميع ما يحتاج اليه على جرى العادة واتى به

الى تلك الجارية ولم يزل نور الدين هو والجارية في أكل وشرب ولعب وانسراح وود
ومنادمة مدة سنة وهي تعمل في كل ليلة زناراً فيديعه بعشرين ديناراً ينفق منها
ما يحتاج اليه والباقي يعطيه لها تحفظه عندها الى وقت الحاجة اليه وبعد السنة
قالت له ياسيدي نور الدين اذابت الزنار في غد فخذ لي من ثمنه حراماً لو ناسته ألوان
فانه قد دخطر بي الى أن أصنع لك منديلاً يتجمل به على كتفك ما فرحت بمنله اولاد
التجار ولا اولاد الملوك البكار فعند ذلك خرج نور الدين الى السوق وباع الزنار
واشترى الحرير الملون كما ذكرت له الجارية وجاء به اليها فقعدت مريم الزنارية تصنع
في المنديل جميعه كامله لانها كلما فرغت من زنار في ليلة تعمل في المنديل شياً الى ان
خلصته ثم تاولته لنور الدين فجعله على كتفه وصار يعيش به في السوق فصار التجار
والناس وأكابر البلاد يقفون عنده صفواً ليتفرجوا على حسنه وعلى ذلك المنديل
وحسن صنعه فاتفق ان نور الدين كان نائماً ذات ليلة من الليالي فانتهبه من منامه
فوجد جاريته تبكي بكاء شديداً وتشد هذه الايات

دنا فراق الحبيب واقتربا * واحرباً للفراق واحرباً
تفتنت مهجتي فوا أسفى * على ليال مضت لنا طرباً
لا بد أن ينظر المحسود لنا * بعين سوء ويبلغ الأرباً
فما علينا أضر من حسد * ومن عمون الوشاة والوقبا

فقال لها نور الدين ياسيدي مريم مالك تبكين فقالت له أبكي من ألم الفراق فقد
أحس قلبي به فقال لها ياسيدة الملاح ومن الذي يفرق بيننا وأنا الآن أحب الخلق
الك وأعشقهم لك فقالت له ان عندي أضعاف ما عندك ولكن حسن الظن
بالليالي يوقع الناس في الأسف وقد أحسن الشاعر حيث قال

أحسنت ظنك بالايام اذ حسنت * ولم تخف سوء ما باقى به القدر
وسالمتك الليالي فاغيترت بها * وعند صفوا الليالي تحدث الكدر
وفي السماء نجوم لا عداد لها * وليس يكسف إلا الشمس والقمر
وكم على الارض من خضر او يابسة * وليس يرجم إلا ماله ثم

أما ترى البحر يعلو فوقه جيف * وتستهقر باقضى قاعه الدرر

ثم قالت ياسيدي نور الدين اذا كنت تحرص على عدم الفراق فخذ حذرک من رجل
افرنجى أعور العين اليمنى أعرج الرجل الشمال وهو شيخ أغبر الوجه مكاتم اللحية لانه
هو الذى يكون سببا لفرقتنا وقد رأيتہ أنى فى تلك المدينة وأظن انه ما جاء الا فى طابى
فقال لها نور الدين ياسيدة الملاح ان وقع بصرى عليه قتلتہ ومثالت به فقالت له
مریم ياسيدى لا تقبله ولا تكلمه ولا تبائعه ولا تشاره ولا تعامله ولا تجالسہ ولا تماشه
ولا تتحدث معه بكلام قط وادع الله أن يكفيننا شره ومكره فلما أصبح الصبح أخذ
نور الدين الزنار وذهب الى به السوق وجلس على مصطبة كان يتحدث هو وأولاد
التجار فاخذته سنة من النوم فنام على مصطبة الدكان فبينما هو نائم واذا بذلك
الافرنجى مر على ذلك السوق فى تلك الساعة ومعه سبعة من الافرنجى فرأى نور
الدين نائما على مصطبة الدكان ووجهه ملفوف بذلك المنديل وطرفه فى يده فقام
الافرنجى هنده وأخذ طرف المنديل وقلبه فى يده واستمر يقلب فيه ساعة فاستحسن
به نور الدين فوافق من النوم فرأى الافرنجى الذى وصفته التجار بة بعينه جالسا
عند رأسه فصرخ عليه نور الدين صرخة عظيمة أزعجته فقال الافرنجى لاى شئ
تصرخ علينا هل نحن أخذنا منك شيا فقال له نور الدين والله ياملعون لو كنت
أخذت منى شيا لكنت ذهبت بك الى الوالى فقال له الافرنجى يا مسلم بحق دينك وما
تعقتك يده أن تخبرنى من أين لك هذا المنديل فقال له نور الدين هو شغل والذى
عملته لى بيدها فقال له الافرنجى أتبعه وتاخذ ثمنه منى فقال له نور الدين والله
ياملعون لا أتبعه لا ولا لغيرك فانها ما عملته الا على اسمى ولم تعمل غيره فقال بعلى
وأنا أعطيتك ثمنه فى هذه الساعة خمسمائة دينار ودع التى عملته تعمل لك غيره أحسن
منه فقال له نور الدين أنا ما أتبعه أبدا لانه لا نظير له فى هذه المدينة فقال له الافرنجى
ياسيدى وهل لا أتبعه بستمائة دينار من الذهب الخالص ولم يزل يزيد مائة بعد مائة
الى أن وصله الى تسعمائة دينار فقال يفتح الله على بغير بيعة أنا ما أتبعه ولا بالنى
دينار ولا بيا كثر أبدا ولم يزل ذلك الافرنجى يرغب نور الدين بالمئال فى ذلك المنديل
الى أن وصله الى ألف دينار فقال له جماعة من التجار الحاضرين نحن بعناك هذا

المندبل فادفع ثمنه فقال له نور الدين أنا ما أبيع - والله فقال له تاجر من التجار اسم
 يا ولدي إن هـ - ذا المندبل قيمته مائة دينار إن كثرت ووجد له راغب وإن هـ - ذا
 الا فرنجي دفع فيه ألف دينار جلة فربحك تسعمائة دينار فأى ربح تريد أكبر من
 هـ - ذا الربح والرأى عندي أنك تبيع هذا المندبل وتأخذ ألف دينار وتقول لتي
 عملته تعمل لك غيره أو أحسن منه واربح أنت الألف دينار من هذا الا فرنجي
 الملعون عدو الدين فاستحى نور الدين من التجار وباع للا فرنجي المندبل بالف
 دينار ودفع له الثمن في الحضرة وأراد نور الدين أن ينصرف ويمضى الى جاريته مريم
 لبشرها بما كان من أمر الا فرنجي فقال الا فرنجي يا جماعة التجار اجزوا نور الدين
 فانكم واياها ضيوف في هذه الليلة فان عندي بنية نجر رومي من معتق النجر ونحرفا
 سميا وفاكهة ونقل وشمو ما فأنتم تؤانسوني في هذه الليلة ولا يتأخر أحد منكم فقال
 التجار يا سيدي نور الدين نشتهي ان تكون معنا في مثل هذه الليلة لتحدث
 معك فن فضلك واحسانك ان تكون معنا فنحنا واياك ضيوف عند هذا الا فرنجي
 لانه رجل كريم ثم انهم حلقوا عليه بالطلاق ومنعوه بالغصب عن الرواح الى بيته
 ثم قاموا من وقتهم وساعتهم ووقفوا الدكاكين وأخذوا معهم - نور الدين وذهبوا مع
 الا فرنجي الى قاعة مطيبة بليوانين فاجلسهم فيها ووضع بين أيديهم سفرة غريبة
 الصنع بديعة العمل فيها صورة كاسر ومكسور وعاشق وممشوق وسائل ومسئول
 ثم وضع الا فرنجي على تلك السفرة الاواني النفيسة من الصينى والبلور وكلها مملوءة
 بنفائس النقل والفاكهة والمشموم ثم قدم لهم الا فرنجي بنية مملوءة بالنجر الرومي
 المعتق وأمر بذبح خروف معين ثم ان الا فرنجي أوقد النار وصار يشوى من ذلك
 اللحم ويطعم التجار ويستقيهم من ذلك النجر ويغمزهم على نور الدين ان ينزلوا
 عليه بالشراب فلم يزلوا يسبقونه حتى سكر وغاب عن وجوده فلما رآه الا فرنجي
 مستغرقا في السكر قال آستنا يا سيدي نور الدين في هذه الليلة فرحبائك ثم
 مرحبائك وصار الا فرنجي يؤانسه بالكلام ثم تقرب منه وجلس بجانبه وسارقه
 في الحديث ساعة زمانية ثم قال له يا سيدي نور الدين هل تبعني جاريته التي
 اشتريتها بحضرة هؤلاء التجار بالف دينار من مدة سنة وأنا اعطيك في عنفها الآن

خمسة آلاف دينار بزيادة أربعة آلاف فابى نور الدين ولم ينزل ذلك الا فرنجى بطعمه
ويستقيه ويرغبه في المال حتى اوصل ثمن الجارية الى العشرة آلاف دينار فقال نور
الدين وهو في سكره قدام التجار بعثك اياها هات العشرة آلاف دينار ففرح
الافرنجى بذلك القول فرحاشد ديدا وأشهد عليه التجار وباتوا في أكل وشرب
وانشراح الى أن أصبح الصباح فصاح الافرنجى على غلمانته وقال لهم انتموني
يا مال فاحضر والمال فعديل نور الدين العشرة آلاف دينار نقدا وقال له ياسيدي
نور الدين تسلم هذا المال ثمن جاريتك التي بعته الى الليلة بحضرة هؤلاء التجار
المسلمين فقال نور الدين يا معلمون انما بعته شيئا وانت تكذب علي وليس عندي
جوار فقال له الافرنجى قد بعته جاريتك وهؤلاء التجار يشهدون عليك بالبيع
فقال التجار كلهم نعم يا نور الدين انت بعته جاريتك قدامنا ونحن نشهد عليك
انك بعته اياها بعشرة آلاف دينار قم فاقبض الثمن وسلمه الجارية والله يعوضك خيرا
منها تذكره يا نور الدين انك اشتريت جاريتك بالف دينار ولك سنة تتمتع بحسنها
وجمالها وتلذذ في كل يوم و ليلة بمناجاة منها او وصلها وبعد ذلك رجحت من هذه الجارية
تسعة آلاف دينار فوق ثمنها الاصل في كل يوم تعمل لك زنارا تبعه بعشرين دينارا
وبعد ذلك كله تنكر البيع وتسهل الرجح أي رجح أكثر من هذا الرجح وأي
مكسب أكثر من هذا المكسب فان كنت تحبها فها أنت قد شبعت منها في هذه
المدة واقبض الثمن واشتر غيرها أحسن منها أو تزوجك بنتا من بناتنا بمهر أقل من
نصف هذا الثمن وتكون البنت اجمل منها و يصير معك باقي المال راس مال في
يدك ولم ينزل التجار يتكلمون مع نور الدين بالملاطفة والمخادعة الى ان قبض
العشرة آلاف دينار عن الجارية واحضر الافرنجى من وقته وساعته القاضي
والشهود فكتبوا له بجملة بشراء الجارية التي اسمها مريم الزنارية من نور الدين
هذا ما كان من امر نور الدين **و اما** ما كان من امر مريم الزنارية فانها عقدت
تتظر سيدها نور الدين جميع ذلك اليوم الى المغرب ومن المغرب الى العشاء ومن
العشاء الى نصف الليل فلم يعد اليها سيدها المذكور فجزعت وصارت تبكي بكاء
شديدا فسمعها الشيخ العطار وهي تبكي فارسل اليها زوجه فدخلت عليها فرائها

تبكى فقالت لها ياسيدتي مالك تبكين فقالت لها يا أمي اني تعذت! تنظر محبي
 سيدتي نور الدين فاجاء الى هذا الوقت وأنا خائفة أن يكون أحد عمل عليه
 حيلة من شاني لأجل أن يبغيني فدخات عليه الحيلة وباعني فقالت لها زوجة
 العطار ياسيدتي مريم لو أعطوا سيدك فيك مل هذه القاعة ذهباً لم يبعك لما
 أعرفه من محبته لك ولكن ياسيدتي مريم ربما يكون جاعة أتوا من مدينة
 مصر من عند والده فهل لهم عزومة في المحل الذي هم نازلون فيه واستحي أن يأتي
 بهم الى هذا المحل لأنه لا يسعهم أولان مرتبتهم أقل من أن يجي بهم الى
 البيت أو أحب أن يخفي أمرك عنهم فبات عندهم الى الصباح ويأتى ان شاء الله
 تعالى اليك في غد بخير فلا تحملي نفسك هما ولا غماً فهذا سبب غيابه عنك في هذه
 الليلة وهما أبويت عندك وأسلمك الى أن يأتي اليك سيدك ثم ان زوجة العطار
 صارت تلاطف مريم وتسليها بالكلام الى أن ذهب الليل كله فلما أصبح الصباح
 نظرت مريم الى سيدها نور الدين وهو داخل من الزقاق وذلك الا فرنجي ساثر وراءه
 وجاعة التجار حوا اليه فلما رأتهم مريم ارتعدت فرائصها واصفر لونها وصارت
 ترتعد كأنها سفينة في وسط بحر فلما رأتها امرأة العطار قالت لها ياسيدتي مريم مالي
 أراك قد تغير حالك واصفرو وجهك فقالت لها الجارية ياسيدتي والله ان قلبي قد
 أحس بالفراق وبعد التلاق ثم ان الجارية تاوهت بتصاعد الزفرات وأنشدت
 هذه الايات

لا تركزن الى الفراق * فاه مر المذاق *
 الشمس عند غروبها * تصفر من ألم الفراق
 وكذلك عند شروقها * تبيض من فرح التلاق

ثم ان مريم الزنارية بكيت البكاء الشديد الذي ما عليه مزيد وتيقنت الفراق
 وقالت لزوجة العطار ياسيدتي أما قلت لك أن سيدتي نور الدين قد علمت عليه حيلة
 من أجل يبغى فأسك في أنه باعني في هذه الليلة لهذا الا فرنجي وقد كنت حذرتك
 منه ولكن لا ينفع حذر من قدر فقد بان لك صدق قولي فيمنها هي وزوجة العطار
 في الكلام واذا بسيدها نور الدين قد دخل عليها في تلك الساعة فنظرت اليه الجارية

فَرَأَتْهُ قَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَتَشَوَّشَ ذَهْنُهُ وَوَلَّاحَ عَلَى وَجْهِهِ أَثْرُ الْحُزْنِ وَالنَّدَمِ فَقَالَتْ لَهُ
يَا سَيِّدِي نُوْرَ الدِّينِ جَعَلْتَ فِدَاءَكَ مَا بِأَلَاكَ وَمَا الَّذِي تَغَيَّرَ مِنْهُ حَالُكَ كَأَنَّكَ بَعَثْتَنِي
فَبِكَيْ بَكَاءٍ شَدِيدٍ وَأَتَاوَهُ وَتَنَفَّسَ الصَّعْدَاءُ وَأَنشَدَ هَذِهِ الْآيَاتِ

هِيَ الْقَادِرُ بِرَفَائِعِي الْحَذِرُ * إِنْ كُنْتُ أَخْطَأْتُهَا أَخْطَأَ الْقَدْرُ
إِذَا أَرَادَ اللهُ أَمْرًا بِأَمْرِي * وَكَانَ ذَا عَقْلٍ وَسَمْعٍ وَبَصَرٍ
أَصَمَّ أُذُنَيْهِ وَأَعْمَى عَيْنَيْهِ * وَسَلَّ مِنْهُ عَقْلُهُ سَلَّ الشَّعْرُ
حَتَّى إِذَا أَنْفَذَ فِيهِ حُكْمَهُ * رَدَّ إِلَيْهِ عَقْلَهُ لِيَعْتَبِرَ
لَا تَقُلْ فِيمَا جَرَى كَيْفَ جَرَى * كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءِ وَقَدْرِ

ثُمَّ إِنْ نُورَ الدِّينِ اعْتَذَرَ إِلَى الْجَارِيَةِ وَقَالَ لَهَا وَاللَّهِ يَا سَيِّدَتِي مَرِيْمُ إِنَّهُ قَدْ جَرَى الْقَلَمُ
بِمَا قَدَرَ اللهُ وَحُكْمَ وَالنَّاسِ قَدْ عَمِلُوا عَلَى حَيْمَلَةٍ مِنْ أَجْلِ يَبْعُكَ فَدَخَلَتْ عَلَى الْحَيْمَلَةِ
فَبَعَثَتْ وَقَدْ فَرَطَتْ فِيكَ أَعْظَمَ تَفْرِيطٍ وَلَسْكَنَ عَمِي مِنْ حُكْمٍ بِالْفِرَاقِ أَنْ يَمُنَّ
بِالْتَّلَاقِ فَقَالَتْ لَهُ قَدْ حَذَرْتُكَ مِنْ هَذَا وَكَانَ فِي وَهْمِي ثُمَّ ضَمَمْتَهُ إِلَى صَدْرِهَا وَقَبَّلَتْهُ
بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَأَنشَدَتْ هَذِهِ الْآيَاتِ

وَحَقٌّ هُوَ أَكْمَ مَا سَأَلْتُمْ وَوَدَّكُمْ * وَلَوْ تَلَفْتُ رُوحِي هَوَى وَتَشَوَّقَا
أَنُوحَ وَأَبِكِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ * كَأَنَّهَا قَرِيٌّ عَلَى شَجَرِ النَّقَا
تَتَغَصَّ عَيْشِي بِعَدَمِكُمْ يَا أَحِبَّتِي * مَنِي غَيْبْتُمْ عَنِّي فَخَالِي مَلْتَقِي

فَبَيْنَمَا هُمَا عَلَى هَذِهِ الْحَيْمَلَةِ يَتَنَاشَدَانِ الْأَشْعَارَ وَيَسْكَبَانِ الدَّمْعَ وَالغُزَارَ وَإِذَا
بِالْأَفْرَنْجِيِّ قَدْ طَاعَ عَلَيْهِمَا وَتَقَدَّمَ لِيَقْبَلَ أَيْدِي السَّيِّدَةِ مَرِيْمَ فَطَامَتَهُ بِكَفِّهَا عَلَى خَدَيْهِ
وَقَالَتْ لَهُ أَبْعِدْ يَا مَلْعُونُ فَازَلْتِ خَلْفِي حَتَّى خَدَعْتَ سَيِّدِي وَلَسْكَنَ يَا عَدُوَّ اللهِ إِنْ
شَاءَ اللهُ تَعَالَى لَا يَكُونُ الْآخِرُ وَأَرْمِي كَيْدَكَ فِي نَحْرِكَ فَضَحَّكَ الْأَفْرَنْجِيُّ مِنْ قَوْلِهَا
وَتَعَجَّبَ مِنْ فَعْلِهَا وَاعْتَذَرَ إِلَيْهَا وَقَالَ لَهَا يَا سَيِّدَتِي مَرِيْمُ أَيُّ شَيْءٍ ذَنْبِي أَنَا وَنَمَّا
سَيِّدِكَ نُورَ الدِّينِ هَذَا هُوَ الَّذِي بَاعَكَ بِرِضَا نَفْسِهِ وَطَيَّبَ خَاطِرَهُ وَإِنَّهُ وَحَقُّ الْمَسِيحِ
لَوْ كَانَ يَجِبُكَ مَا فَرَطَ فِيكَ وَلَوْلَا أَنَّهُ فَرَّغَ غَرَضَهُ مِنْكَ مَا بَاعَكَ وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ

مَنْ مَلَّنِي فَلَيْمِضْ عَنِّي عَامِدًا * إِنْ عَدْتِ أَذْكَرَهُ فَلَسْتَ بِرَأْسِدِ
مَا ضَافَتْ الدُّنْيَا عَلَى بَاسِرِهَا * حَتَّى تَرَانِي زَاغِيًا فِي زَاهِدِ

وقد كانت هذه الحجارية بنت ملك افرنجية وهي مدينة واسعة الجهات كثيرة
الصنائع والغرائب والنباتات تشبه مدينة القسطنطينية وقد كان مخرج تلك
الحجارية من مدينة أبيها حديث غريب عجيب نسوقه على الترتيب حتى يطرب
منه السامع ويطيب وذلك انها تربت عند أبيها وأمهافي العز والدلال والانس
والكمال وتعلمت الفصاحة والكتابة والحساب والفروسية والشجاعة وغالب
مهمات الصنائع مثل الزركشة والخياطة وصناعة الزناير والعقادة ورمى الذهب على
الفضة وغير ذلك واتقنت صنائع الرجال والنساء حتى صارت ماهرة في كل صناعة
فصارت قريدة في عصرها ووحيدة في دهرها وقد أعطاها الله عز وجل من
الحسن والجمال والنظر الذي لم يوجد مثله في نساء ولا رجال فخطبها ملوك الجزائر
من أبيها وكل من خطبها منه بابي أن يزوجه الله لانه كان يحبها حباً شديداً ولا يقدر
على فراقها ساعة واحدة ولم يكن عنده بنت غيرها وكان معه من الاولاد الذكور
كثير ولم يكنه كان مشغولاً بحبها أكثر منهم فاتفق انها مرضت في بعض السنين مرضاً
شديداً حتى أشرفت على الهلاك فنذرت على نفسها أنها اذا عوفيت من هذا المرض
تزور الدير الفلاني الذي في الجزيرة الفلانية وكان ذلك الدير معظماً عندهم
وينذرون له النذور ويتبركون به فلما عوفيت مريم من مرضها أرادت أن توفى
بنذرها الذي نذرتة على نفسها لذلك الدير فأرسلها ملك افرنجية الى ذلك الدير في
مركب صغيرة وأرسل معها بعضاً من بنات أكابر المدينة ومن البطارقة لاجل
خدمتها فلما قربت من الدير صادفها مركب من مراكب المسلمين المجاهدين في
سبيل الله فأخذوا جميع ما في تلك المركب من البطارقة والبنات والأموال والتحف
فباعوا ما أخذوه في مدينة القيروان فوَقعت مريم في يد رجل أعجمي تاجر من التجار
وقد كان ذلك الأعجمي غنياً لا ياتي النساء ولم تنكشف له عورة على امرأة فجعلها
للخدمة ثم ان ذلك الأعجمي مرض مرضاً شديداً حتى أشرف على الهلاك وطال عليه
المرض مدة شهرين فخدمته مريم وبالغت في خدمته الى أن طافه الله من مرضه فتذكر
ذلك الأعجمي منها الشفقة والحمية عليه والقيام بخدمته فأراد أن يكافئها على
ما فعلته معه من الجميل فقال لها تسمى علي يا مريم فقالت يا سيدي تسمى عليك أن

لا تتبعني الا لمن أريد وأحبه فقال لها نعم لك على ذلك والله يا امرئيم ما أبيعك الا لمن
تريدينه وقد جعلت بيعك بيدك ففرحت فرحاً شديداً وكان الأبحمي قد عرض
عليها الاسلام فاسلمت وعلها العبادات فتعلمت من ذلك الأبحمي في تلك المدة أمر
دينها وما يجب عليها وحفظها القرآن وما تيسر من العلوم الفقهية والاحاديث
النبوية فلما دخل بها مدينة اسكندرية باعها لمن ارادته وجعل بيعها بيدها كما
ذكرنا فاخذها على نور الدين كما أخبرنا هذا ما كان من سبب خروجها من بلادها
(وأما ما كان من أمر أبيها ملك افرنجية فانه لما بلغه أمر ابنته ومن معها قامت عليه
القيامة وأرسل خلفها المراكب وصحبتهم البطارقة والفرسان والرجال والشجعان
فلم يبقوا لها على خبر بعد التفتيش في جزائر المسلمين ورجعوا الى أبيها بالويل
والثبور وعظائم الامور فحزن عليها ابوها حزناً شديداً فأرسل خلفه اذلك الاعور
اليميني الاعرج الشمال لانه كان أعظم وزراءه وكان جباراً عنيداً اذا حيل وخداع
وأمره ان يفتش عنها في جميع بلاد المسلمين ويشتريها ولو بمثل مركب ذهباً ففتش
عليها ذلك الملعون في جزائر البحار وغالب المدن فلم يقع لها على خبر الى أن وصل
الى مدينة اسكندرية وسأل عنها فوقع على خبرها عند نور الدين على المصري فحري
لده معه ما جرى وعمل عليه الحيلة حتى اشتراها منه كما ذكرنا بعد الاستدلال عليها
بالمندبل الذي لا يحسن صنعه غيرها وكان قد وصى التجار واتفق معهم على
خلاصها بالحيلة فلما صارت عنده مكثت في بكاء ووعويل وحزن طويل فقال
لها يا سيدتي مريم خلى عنك هذا الحزن والبكاء وقومي معي الى مدينة ابيك ومحل
ملكك ومثزل عزك ووطنك لتكوني بين خدمك وعلمائك وحشمك واتركي
هذا الذل وهذه الغربة ويكفي ما قد حصل لي من التعب والسفر من أجلك
وصرف الاموال فان لي في السفر والتعب وصرف الاموال نحو سنة ونصف وقد
أمرني والدك أن اشتريك ولو بمثل مركب ذهباً ثم ان ذلك الوزير صار يقبل قدمها
ويتخضع لها ولم يزل يكرر تقبيل يديها وقدميها وهي تزداد في الغضب عليه وهو
مع ذلك منقاد اليها ويفعل ذلك كله أديباً معها واحتراماً لسانها وقد قالت له
يا ملعون ان الله سبحانه وتعالى لا يبلغك ما في مرادك ثم قدم اليها الغلامان في تلك

الساعة بغلة بسرج مزدكش واركبوها عليها ورفعوها فوق رأسها مصحبة من حرير
بعدهم ذهب وفضة وصاروا يفرحون حولها حتى طلعا بها من باب البحر
وأنزلوها في قارب صغير وصاروا يقدفون بها إلى أن وصلوها إلى المركب الكبيرة
وأنزلوها فيها فعند ذلك نهض الوزير الأعور وقال لبحرية المركب ارفعوا الصاري
فرفعوه من وقتهم ونشروا القلوع والاعلام وسافرت بهم تلك المركب هذا كله
ومريم تنظر إلى ناحية اسكندرية حتى غابت عن عينها فصارت تبكي في سرها بكاء
شديدا وقد سكبت العبرات وأنشدت هذه الايات

أيام نزلنا لأحباب هل لك عودة * البنا وما علمي بما الله صانع
فسارت بنا سفن الفراق وأسرت * وطرفي قريح قد محته المدامع
لفرقة خل كان غاية مقصدي * به يشتفي سقمي وتمعي المواجه
أيا بالهي ~~كن~~ عليه خيلتي * فعندك حقا لتضيع الودائع
ولم نزل مريم كلما تذكرته تبكي وتنوح فاقبل عليها البطارقة يلاطفونها فلم تقبل
منهم كلاما بل شغلها داعي الوجد والغرام وزاد بها النجيب والهيام فاشتدت
بها الحسرات وأنشدت هذه الايات

لسان الهوى في مهجتي لك ناطق * يخبر عني أنني لك عاشق
ولي كيد جبر الهوى قد أذابها * وقلبي جريح من فراقك خافق
وكم أكنم الحب الذي قد أذابني * فجفني قريح والدموع سوابق
ولم نزل مريم على هذه الحالة لا يقر لها قرار ولا يطاوعها الصغار مدة سفرها
هذاما كان من أمرها هي والوزير الأعور (وأما) ما كان من أمر نور الدين على
المصري فإنه بعد نزول مريم المركب وسفرها ضاقت عليه الدنيا وصار لا يقر له قرار
ولا يجده عن فراقها الصغار فتوجه إلى القاعة التي كان مقيما بها هو ومريم
فراها في وجهه سوداء مظلمة ورأى العدة التي كانت تشتغل عليها الزنانير وثيابها
التي كانت على جسدها فضمها إلى صدره وبكى وأن لفراق حبيبتة واشتكي
وفاضت من جفنه العبرات وأنشدت هذه الايات

تري هل يعود الشمل بعد تشتتي * وبعد توالي حسرتي وتناقني

فهمات ماقدكان ليس براجع * فياهل تری أحظی بوصول حبيبتی
وياهل تری قد یجمع الله شملنا * وتذکرا حبابی عهـ ودمـ وودنی
ویحفظ وودی من یجهلی أضعته * وبرعی عه وودی ثم سالف صهبتی
فما أنا الامیت بعد بعدهم * وهل ترضی الاحباب یوما منیتنی
فیا سقی ان کان یجدی ناسف * لقد ذبت وجدان تراید حسرتی
وضاع زمان کان فیہ تواصلی * فیاهل تری دهری یجود بمنیتنی
فیا قلب زد وجد او یابعی أهملی * دموعا ولا تبقی الدموع بقلتی
ویابعـ داحبابی وفقد تصبری * لقد قل انصاری وزادت بلینتی
سالت الہ العالمین یجودلی * بعود حبیبتی والوصول کعادتی
ثم ان نورالدين بکی البکاء الشدید الذی ما علیه مزید ونظر الی زوايا القاعة وأنشد
هذین البیتین

أری آثارهم فاموت شوقا * وأسکب فی مواطنهم دموعی
واسال من قضی بالبعد عنهم * یمن علی یوما بالرجوع
ثم ان نورالدين نهض من وقتـه وساعتـه وقفل باب الدار وخرج یجری الی البهر
وصار یتمال فی موضع المركب الی سافرت بمریم فبکی وصعد الزفرات وأنشد
هذه الابیات

سلام علیکم لیس لی عنکم غنا * وانی علی الحالین فی القرب والبعد
أحن الیکم کل وقت وساعة * وأشتاقکم شوق العطاش علی الورد
وعندکم سمعی ولی وناطری * وتذکارکم عندی أذل من الشهد
فیا أسفی لما استقلت رکابکم * وجدت بکم تلك السفینة عن قصد
ثم ان نورالدين ناح وبکی وأن وحن واشتکی ونادی یامریم یامریم هل کانت
رؤیتنی لک فی المنام أم أضغاث أحلام ولما زاد به الحزن والحسرات أنشد هذه
الابیات

فهل بعد هذا البعد عنی تراکم * وأسمع من قرب الدیار نداکم
وتجمعنا الدار الی أنست بنا * وأعطی منی قلبی وأنتم مناکم

خذ والعظامي ابن سيرتم محفة * وابن حلتهم فادقنوني حداكم
فلو كان لي قلبان عشت بواحد * وأترك قلبا مغرما في هواكم
ولو قيل لي ماذا على الله تشتهي * لقلت رضا الرحمن ثم رضاكم
فبينما نور الدين على هذه الحالة يبكي ويقول يا مريم واذا بشيخ قد طلع من مركب
وأقبل عليه فرآه يبكي وينوح وينشدهذين البيتين
يا مريم الحسن عودي ان لي مقلا * سبحانه المزن تجرى من سواكها
واس-تجبري عزلي دون الانام ترى * أحفان عيني غرقى في كواكبها
فقال له الشيخ يا ولدي كأنك تبكي على الجارية التي سافرت البارحة مع الافرنجى
فلما سمع نور الدين كلام الشيخ خرم غشا-يا عليه ساعة زمانية ثم أفاق وبكى البكاء
الشديد الذي ما عليه مز يد وأنشده هذه الايات

فهل بعد هذا البعد برجى وصالها * ولذة أنسى قد يعود كمالها
فان بقلبي لوعة وصباية * وبرزعنتي قيل الوشاة وقالها
أقسيم نهى باهتام تحبيرا * وفي الليل أرجوا أن يزور خيالها
فوالله لا أسلوعن العشق ساعة * وكيف ونفسي في الوشاة ملالها
منعمة الاطراف مهصومة الحشا * لها مقلة في القلب منى نبالها
يحاكى قضيب البان في الروض قد هاهو ويحمل ضوء الشمس حسنا جالها
ولولا أخاف الله جل جلاله * لقلت لذات الحسن جل جلالها
فلما نظر ذلك الشيخ الى على نور الدين ورأى جماله وقده واعتداله وفصاحة لسانه
ولطف اقتنائه حزن قلبه عليه وورق لحانه وكان ذلك الشيخ رئيس مركب
مسافرة الى مدينة تلك الجارية وفيها زيارته عن مائة تاجر من المسلمين فقال له اصبر
يا ولدى ولا ترى الاخير ان شاء الله تعالى أو صلاك اليها فقال له نور الدين متى الحفر
يا سيدى فقال الرئيس قد بقى لنا ثلاثة أيام ونسافر في خير وسلامة فلما سمع نور
الدين كلام الرئيس فرح فرحاً شديداً وشكر فضله واحسانه وبعد ذلك تذكر أيام
الوصول واجتماع الشمل بجاريتته ذات الحسن والجمال فبكى بكاء شديداً وأنشده
هذه الايات

فهل يجمع الرحمن لي ولكم شهلا * وهل أبلغ المقصود يا سادتي أم لا
ويسمع صرف الدهر منكم بزورة * واطبق أجفاني على ذاتكم بخلا
ولو كان وصلكم يباع اشتريته * بروحي ولو كن أرى وصلكم أغلى

ثم ان نور الدين طلع من وقته وساعته وتوجه الى السوق وأخذ منه جميع ما يحتاج
اليه من الزاد وادوات السفر وأقبل على ذلك الرئيس فلما رآه قال له يا ولدي ما
هذا الذي معك قال زوادتي وما احتاج اليه في السفر فضحك الرئيس من كلامه وقال
له يا ولدي هل أنت راشح تنفرج على عمود السواري ان بينك وبين مقصدك مسيرة
شهرين اذا طاب الريح ووصفت الاوقات ثم ان ذلك الشيخ أخذ من نور الدين شيئا
من الدراهم وطلع الى السوق واشترى له جميع ما يحتاج اليه في السفر على قدر
كفايته وملا له بنية ماء حلوا ثم أقام نور الدين في المركب ثلاثة أيام الى أن تجهز
التجار وقضوا مصالحهم ونزلوا في المركب ثم حل الرئيس قلوبها وسار وامدأ أحد
وخسين يوما وبعد ذلك خرج على القرصان قطاع الطريق فنهبوا المركب وأسروا
جميع من فيها وأتوا بهم الى مدينة أفرنجية وعرضوهم على الملك وكان نور الدين من
جملتهم فأمر الملك بحبسهم وفي وقت نزولهم من عند الملك الى الحبس وصل الغراب
الذي فيه الملكة مريم الزنارية مع الوزير الاعور فلما وصل الغراب الى المدينة طلع
الوزير الى الملك وبشره بوصول ابنته مريم الزنارية سالمة فدقوا البشائر وزينوا
المدينة باحسن زينته وركب الملك في جميع عسكره وأرباب دولته وتوجهوا الى
البحر ليقابلوها فلما وصلت المركب طلعة ابنته مريم فعانقها وسلم عليها وقدم لها
جوادا فركبته فلما وصلت الى القصر قابلتها أمها وعانقتها وسلمت عليها وسالتها
عن حالها وهل هي بكر مثل ما كانت عندهم سابقا أو صارت امرأة ثيبا فقالت لها
مريم يا أمي بعد أن يباع الانسان في بلاد المسلمين من تاجر الى تاجر ويصير
محكوما عليه كيف تبقى بنت بكر ان التاجر الذي اشتراني هددني بالضرب وأكرهني
فازال بكارتني وباعني لآخر وآخر باعني لآخر فلما سمعت أمها هذا الكلام
صار الضياء في وجهها كالظلام ثم أعادت على أبيها هذا الكلام فصعب ذلك
عليه وكبر أمره لديه وعرض حالها على أرباب دولته وبطارقته فقالوا له

أي الملك أنها تجست من المسلمين وما يطهرها الا ضرب مائة رقبة من المسلمين
 فعند ذلك امر الملك باحضار الاسارى الذين فى الحبس فاحضروهم جميعا بين يديه
 ومن جلتهم نور الدين فامر الملك بضر برقابهم فاول من ضرب رقبة رئيس المركب
 ثم ضرب وارقاب التجار واحدا بعد واحد حتى لم يبق الا نور الدين فشرطوا ذيله
 وعصبوا عينه ووقدموه الى نقع الدم وارادوا أن يضربوا رقبة واذا بامرأة عجوز
 أقبلت على الملك فى تلك الساعة وقالت له يا مولاي أنت كنت نذرت لكل كنيسة
 خمسة أسارى من المسلمين ان رد الله بنتك مريم لاجل أن يساعدونا فى خدمتها
 والآن قد وصلت اليك بنتك السيدة مريم فاوف بنذرك الذى نذرته فقال لها
 الملك يا أمى وحق المسيح والدين الصحيح لم يبق عندي من الاسارى غير هذا الاسير
 الذى يريدون قتله فخذيه معك يساعدك فى خدمة الكنيسة الى أن ياتى المنيا
 أسارى من المسلمين فارسل اليك أربعة آخر ولو كنت سبقت قبل أن يضربوا رقاب
 هؤلاء الاسارى لا عطيتناك كل ما تريد منه فشكرت العجوز صنيع الملك ودعت له
 بدوام العزو والبقاء والنعم ثم تقدمت العجوز من وقتها وساعتها الى نور الدين وأخرجته
 من نقع الدم ونظرت اليه فرأته شابا لطيفا ظر يفارق ميق البصرة ووجهه كأنه البدر
 اذا بدر فى ليلة أربعة عشر فاخذته ومضت به الى الكنيسة وقالت له يا ولدى اقلع
 ثيابك التى عليك فانها لا تصلح لخدمة الساطان ثم ان العجوز جاءت لنور الدين بحببة
 من صوف اسود ومتران من صوف أسود وسير عريض فالبسته تلك الحبة وذلك المتر
 وشدت وسطه بالسير و امرته أن يخدم الكنيسة فقدم الكنيسة مدة سبعة أيام فبينما هو
 كذلك واذا بتلك العجوز قد أقبلت عليه وقالت له يا مسلم خذ ثيابك المحربر والبسها
 وخذ هذه العشرة دراهم وأخرج فى هذه الساعة لتتفرج فى هذا اليوم ولا تقف
 هنا ساعة واحدة لئلا تروح روحك فقال لها نور الدين يا أمى أى شئ الخبر فقالت
 له العجوز اعلم يا ولدى أن بنت الملك السيدة مريم الزنارية تريد أن تدخل الكنيسة
 فى هذا الوقت لاجل أن تذورها وتبكر بها وتقرب لها قربانا فاحلاوة السلامة بسبب
 خلاصها من المسلمين وتوفى لها النذور التى نذرتها ان نجها المسيح ومعها أربع مائة
 بنت ماواحدة منهمن الا كاملة فى المحسن والجمال ومن جلتهم بنت الوزبر وبنت

الامراء وأرباب الدولة وفي هذه الساعة يحضرن وربما يقع نظره من عليك في هذه الكنيسة فيقتلك فعند ذلك أخذ نور الدين من الجوز العشرة دراهم بعد ان لبس ثيابه وخرج الى السوق وصار يتفرح في شوارع المدينة حتى عرف جهاتها وأبوها ثم رجع الى الكنيسة فرأى مريم الزنارية بنت الملك قد أقبلت على الكنيسة ومعها أربعمائة بنت نهدا بكار كأنهن الاقار ومن جاتهن بنت الوزير الاعور وبنت الامراء وأرباب الدولة وهي تمشي بينهن كأنها القمر بين النجوم فلما رآها نور الدين لم يتمالك نفسه بل صرخ من صميم قلبه وقال يا مريم فلما سمعت البنات صياح نور الدين وهو ينادى يا مريم هجمن عليه وجر دن بيض الصفاح مثل الصواعق وأردن قتله في تلك الساعة فالتفت اليه مريم وتاملته فعرفته غاية المعرفة فقالت للبنات اتركن هذا الشاب فانه مجنون بلا شك لان علامة المجنون لا تفتح على وجهه فلما سمع نور الدين من السيدة مريم هذا الكلام كشف رأسه وخلق عينيه وأشاح يديه وعوج رجله وأخرج الزبد من فيه وشدقيه فقالت السيدة مريم أما قلت لكن ان هذا مجنون احضره عندي وابعده عنه حتى أسمع ما يقول فاني أعرف كلام العرب وأتطرع له وهل داء جنونه يقبل للمدواة أم لا فعند ذلك جمه البنات وحثن به بين يديها ثم أبعده عنه فقالت له هل جئت الى هنا من اجلى وخطرت بنفسك وعمات نفسك مجنون فقال لها نور الدين يا سيدتى أما سمعت قول الشاعر

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم * مالذة العيش الالهعنانين

ها تو اجنوني وها تو امن جننت به * فان وفي بجنوني لاتلوموني

فقالت له مريم والله يا نور الدين انك الجاني على نفسك فاني حذرتك من هذا قبل وقوعه فلم تقبل قولي وتبعته هوى نفسك وانما اخبرتك من باب الكشف ولا من باب الفراسة ولا من باب الرؤيا في المنام وانما هو من باب المشاهدة والعيان لاني رأيت الوزير الاعور فعرفت انه ما دخل في هذه البلدة الا في طلبى فقال لها نور الدين يا سيدتى مريم نعوذ بالله من زلة العاقل ثم ترايد بنور الدين الحال فانشد هذا المقال هبوا جنانية من زلت به القدم * قد يشعل العبد من ساداته كرم

حسب المسيء بذنوب من جنابته * فرط الندامة اذ لا ينفع الندم
 فعلت ما يقتضى التأديب معترفا * فان ما يقتضيه العفو والكرم
 ولم يزل نور الدين هو والملايكة مريم الزنارية في عتاب يطول شرحه وكل منهما يحكى
 لصاحبه ما جرى له ويتماشدان الاشعار ودموعهما تجري على خدودهما شبيهة
 الانهار ويتشكبان لبعضهما شدة الهوى وأليم الوجد والجوى الى أن لم يبق
 لاحدهما قوة على الكلام وقدولى النهار وأقبل الظلام وقد كان على السيدة
 مريم حلة خضراء مزركشة بالذهب الاجر مرصعة بالدر والجوهر فنادى بها حسنها
 وظرف معانها وقد أجاد من قال فيها

تبدت كبد التم في المحلل الحضر * مفككة الازرار محلولة الشعر
 فقلت لها ما الاسم قالت أنا التي * كويت قلوب العاشقين على الحجر
 أنا الفضة البيضاء والذهب الذي * يفلق به المساور من شدة الاسر
 فقلت لها ان الصدود أذابني * فقالت أتشكوا الى وقلبي من صخر
 فقلت لها ان كان قلبك صخرة * فقد أنبع الله الزلال من الصخر
 فلما جن الليل أقبلت الملائكة مريم على البنات وقالت لهن هل أغلقتن الباب فقان
 لها قد أغلقتناه فعند ذلك أخذت السيدة مريم البنات وأتت بهن الى مكان يقال له
 مكان السيدة مريم العذراء أم النور لان النصارى يزعمون ان روحانياتها وسرها
 في ذلك المكان فصارت البنات يتبركن به ويطفن في الكنيسة كلها ولما فرغن
 من زيارتها التفتت السيدة مريم اليهن وقالت لهن انى اريدان ادخل وحدي في
 هذه الكنيسة وأترك بها فانه حصل لى اشتياق اليها بسبب طول غيبتى في بلاد
 المسلمين وأما أنتن فحيث فرغتن من الزيارة فممن حيث شئتن فقان لها حبا وكرامة
 افعلى انت ما تريدينه ثم انهن تفرقن عنها فى الكنيسة وممن فعند ذلك استغفلت هن
 مريم وقامت تفتش على نور الدين فرأته فى ناحية جالسا على مقالى البحر وهو فى
 انتظارها فلما أقبلت عليه قام لها على قدميه وقبل يديها بجلست وأجلسته الى
 جانبها ثم نزع ما كان علىها من الحلى والحلل وضمت نور الدين الى صدرها وجعلته
 فى حضنها ولم تنزل هي واياه فى تقبيل وعناق ونعمات خاق باق وهما يقولان

ما أقصر ليل التلاق وما أطول يوم الفراق وينشدان قول الشاعر
باليلة الوصل وبكر الدهر * لانت غرة الليالي الغر
فجئتني بالصبح وقت العصر * هل كنت كعلا في عيون الفجر
أو كنت أو ما في عيون الرمد

ليلة الوصال ما أطولها * آخرها مواصلة أولها
كعقبة مفرغة ما إن لها * من طرف والحشر أيضا قبلها
فأصب بعد البعث ميت الصد

فبينما هما في هذه اللذة العظيمة والفرحة العميمة واذبا بسلام من الغلمان النفيسة
يضرب الناقوس فوق سطح الكنيسة ليقيم من عبادتهم الشعائر وهو كما قال الشاعر
رأيت به يضرب الناقوس قلت له * من علم الظبي ضربا بالنواقيس
وقلت للنفس أي الضرب يؤمك * ضرب النواقيس أم ضرب النواقيس
فلما سمعت مريم ضرب الناقوس قامت لوقتها وساعتها ولبست ثيابها وحلبها
فشق ذلك على نور الدين وتذكر قلبه الحزين وسكب العبرات وأنشد هذه الأبيات

لا زلت التم ورد خد غض * وأعد ذلك مبالغا في العوض
حتى إذا طبتنا ونام رقيبنا * وعيوننا مالت نحو الغمض
ضربت نواقيس تشبه أهلها * بمؤذن يدعو صلاة الغرض
قامت على عجل للباس ثيابها * من خوف نجبم رقيبنا المنقض
وتقول يا سؤلى ويا كل المنى * جاء الصبح بوجهه المبيض
اقسمت لو أعطيت ملك ولاية * وبقيت سلطانا شديدا قبض
لهدمت أركان الكنائس كلها * وقتلت كل مقسس في الأرض

ثم إن السيدة مريم ضمت نور الدين إلى صدرها وقبلت خده وقالت له يا نور الدين
كم يوم لك في هذه المدينة فقال سبعة أيام فقالت له هل سرت في هذه المدينة
وعرفت طرقها ومخارزها وأبوابها التي من ناحية البر والبحر قال نعم قالت وهل
تعرف طريق صندوق النذر الذي في الكنيسة قال نعم فقالت له حيث كنت تعرف
ذلك كله إذا كانت الليلة القابلة ومضى ثلث الليل الأول فاذهب في تلك الساعة إلى

صندوق النذر وخدمته ما تر يده وتشتهيه وافتح باب الكنيسة الذي فيه الخوخة التي توصل الى البحر فانك تجد سفينة صغيرة فيها عشرة رجال بحرية فخير آك الرئيس يديده اليك فناوله يديك فانه يطلعك في السفينة واقعه يدعنده حتى اגיע اليك والمخدر ثم المخدر من أن يلحقك النوم في تلك الليلة فتندم حيث لا ينفعك الندم ثم ان السيدة مريم ودعت نور الدين وخرجت من عنده في ذلك الوقت والحين ونهت جواربها وساير البنات من نومهن وأخذتهن وأنت الى باب الكنيسة ودقته ففتحت البجوز الباب فلما طلعت منه رأت الخدم والمخشم والبطارقة وقوفا فقدموا لها بغلة فركبتهم وأرخوا عليها تاموسية من الحرير وأخذت البطارقة بزمام البغلة ووراءها البنات واحتاط بها الخماوي شبيبة وبايديهم السيوف مسلولة وتوجهوا بها الى أن وصلوا الى قصر أبيها هذا ما كان من أمرها وأما ما كان من أمر نور الدين فانه لم يزل مختلفا ووراء الستارة التي كان مستترا خلفها هو ومريم الى أن طلعت الشمس ودخل الناس في الكنيسة وكثروا فيها فاختلف بالناس وجاء الى تلك البجوز قيصة الكنيسة فقالت له أين كنت راقداني هذه الليلة قال في محل داخل المدينة كما أمرتني فقالت له البجوز نعم ما فعلت ولو كنت بت الليلة في الكنيسة لكانوا قتلوك أقبح قتلة قتال لها نور الدين الحمد لله الذي نجاني من شر هذه الليلة ولم يزل نور الدين يقضى شغله في الكنيسة الى أن مضى النهار وأقبل الليل بدياجي الاعتكار فقام نور الدين وفتح صندوق النذر وأخدمته ما خف حمله وغلامه من الجواهر ثم صبر الى أن مضى ثلث الليل الاول وقام ومشى الى باب الخوخة التي توصل الى البحر وهو يطلب الستر من الله ولم يزل يمشي الى أن وصل الى الباب وفتحه وخرج من تلك الخوخة وذهب الى البحر فوجد السفينة راسية على شاطئ البحر بجوار الباب ووجد الرئيس شيخا كبيرا ظريفا الا أن محبته طويلة وهو واقف في وسطها على رجله والعشرة رجال واقفون قدامه فناوله نور الدين يده ثم أمرته مريم فاخذته من يده وجذبه من البحر فصارت في وسط السفينة فعند ذلك صاح الشيخ الرئيس على البحر به وقال لهم اقلعوا مرساة السفينة من البر وعوموا بنا قبل

أن يطلع النهار فقال واحد من العشرة البحريّة يا سيدي الرئيس كيف نعوم
 والملاك أخبرنا أنه في غد يركب السفينة في هذا البحر ليطلع على ما فيه لأنه خائف على
 ابنته مريم من سراق المسلمين فصاح عليهم الرئيس وقال ويلكم بأملا عين هل بلغ
 من أمركم أنكم تخالفونني وتردون كلامي ثم إن الرئيس سل سيفه من عنقه وضرب
 به ذلك المتكلم على عنقه فخرج السيف يلعب منه فقال له واحد وأي ذنب عمل
 صاحبنا حتى تضرب رقبتك فديده إلى السيف وضرب به عنق هذا المتكلم ولم يزل
 ذلك الرئيس يضرب أعناق البحريّة واحدا بعد واحد حتى قتل العشرة وورما هم
 على شاطئ البحر ثم التفت إلى نور الدين وصاح عليه صيحة عظيمة أربعته وقال له
 انزل إلى المراسي نخاف نور الدين من ضرب السيف ونهض قائما ووثب في البر وقلع
 المراسي ثم طلع في السفينة أسرع من البرق وصار الرئيس يقول له افعل كذا وكذا
 ودور كذا وكذا وانظر النجوم ونور الدين يفعل جميع ما يأمره به الرئيس وقلبه
 خائف مرعوب ثم رفع شراع المركب وسارت بهم في البحر العجاج المتلاطم
 بالأمواج وقد طاب لهما الريح كل ذلك ونور الدين ماسك بيده الراجع وهو غريق
 في بحر الأفكار ولم يزل مستغرقا في الفكر ولم يعلم بما هو محبب إليه في الغيب وكما
 نظر إلى ذلك الرئيس ارتعب قلبه ولم يعلم الجهة التي هو متوجه إليها بل صار مشغولا
 في فكره وسواس إلى أن اتضح النهار وطلعت الشمس فعند ذلك نظر نور الدين
 إلى الرئيس فراه قد أخذ بحمته الطويلة بيده وجذبها فطلعت من موضعها في
 يده وتاملها نور الدين فوجدها تحية كانت ملصقة بزوراثم تامل نور الدين في ذات
 الرئيس ودقق النظر فيها فاذا هي السيدة مريم معشوقته وكانت قد تحيلت بتلك
 الحيلة حتى قتلت الرئيس وسلخت وجهه بلحمته وأخذت جلد وجهه وركبته على
 وجهها فتعجب نور الدين من فعلها وشجاعتها ومن قوة قلبها وقد طارعه قلبه من
 الفرح واتسع صدره وانشرح فقال لها مرحبا بك يا منيقي وسؤلي وعاية مطلبي
 ثم إن نور الدين هزه الشوق والطرب وأيقن ببلوغ الأمل والأرب فردد صوته
 بأطيب النغمات وأنشد هذه الأبيات

قل لقوم هم لعشقي جهلوا * في حبيب ما إليه وصلوا

عن غرامى بين قومي فاسالوا * قد حلا نظمي ورق الغزل

في هوى قوم بقلبي نزلوا

ذكركم عندي يزيل السقام * عن فؤادي ويزيح الالما

زاد شوقى وهيامى عندما * أصبح القلب كثيبا مغرما

وبه في الناس سار المثل

أنا لا أقبل فيهم لومة * لا ولا أقصد عنهم سلوة

لكن الحب زمانى حسرة * أشعلت منه بقلبي جرة

حرها في كبدى يشتعل

من عجب قد أباحوا سقى * سع سهادى طول ليل مظلم

كيف راموا بالتجافى عدى * واستحلوا فى الهوى سفك دى

وهم في جورهم قد عدلوا

ياترى من الذى أوصاكم * بالتجافى عن قتيهواكم

ولعمري والذى أنشاكم * نقل العذال قولا عنكم

كذبوا والله فيما نقلوا

لا أزاح الله عنى - لالا * لا ولا أشقى لقلبي غللا

يوم أشكو من هواكم ملالا * أنا لا أرضى سواكم بدلا

عذبوا قلبي وان شتمت صلوا

لى فؤاد لم يحل عن حبكم * لو بعانى حسرة من صدكم

مخط هذا والرضا من عندكم * ما تشاؤا فافعلوا فى عبدكم

هو بالروح لكم لا يبخل

فلما فرغ نور الدين من شعره تعجبت منه مريم غاية العجب وشكرته على قوله وقالت له من هذه حالته ينبغي أن يسلك مسالك الرجال ولا يفعل فعل الاندال وقد كانت السيدة مريم قوية القلب تعرف باحوال سير المراكب في البحر المسامح وتعرف الأهوية كلها واختلافها وتعرف طرق البحر فقال لها نور الدين والله يا سيدتى لو أطلت على هذا الأمر من شدة الخوف والفرع خصوصاً مع نار الوجد والاشتياق

وألم الفراق فضحك من كلامه وقامت من وقتها وساعتها وأخرجت شيامن
 المسكول والمشروب فاكلوا وشربوا وتلذذوا وطربوا وبعد ذلك أخرجت من
 البواقي والمجوهر وأصناف المعادن الغالية والذخائر وأنواع الذهب والفضة
 مما خفي عليه وغلائمه من الذي جاءت به من قصر أبيها وخزائنه وعرضت ذلك على
 نور الدين ففرح به غاية الفرح كل ذلك والر يح معتمداً والمركب سائرة ولم يزل
 سائراً حتى أتى على مدينة اسكندرية وشاهدوا أعلامها القوية فلما وصلوا
 إلى الميناء طلع نور الدين من وقته وساعته من تلك السفينة وربطها هناك وأخذ معه
 شيامن الذخائر التي جاءت بهامريم وقال لها يا سيدتي أقعدني في السفينة حتى
 أطلع بك إلى اسكندرية مثل ما أحب وأشتهى فقالت له ولكن ينبغي أن يكون
 بسر عتلان التراخي في الامور يورث الندامة فقعدت مريم في السفينة وتوجهه نور
 الدين إلى بيت العطار صاحب أبيه ليستعيرها من زوجته نقاباً وازاراً وما تحتاج إليه
 كعادة نساء اسكندرية ولم يعلم بما لم يكن له في حساب من تصرفات الدهر أي الحب
 الجواب هذا ما كان من أمر نور الدين ومريم الزنارية (وأما) ما كان من أمر أبيها ملك
 افرنجة فانه لما أصبح الصباح تفقد ابنته مريم فلم يجدها فسال عنها من جوارها
 وخدمها فقالوا له يا مولانا انها خرجت بالليل وراحت إلى الكنيسة وبعد ذلك لم
 نعرفها اخيراً فبينما الملك يتحدث مع الجوارى والخدم في تلك الساعة واذا
 بصريختين عظيمتين تحت القصر قد دوى لهما المكان فقال الملك ما الخبر فقالوا له
 الملك وجدنا عشرة رجال مقتولين على ساحل البحر وسفينة الملك قد فقدت ورأينا
 باب الخوخة الذي في الكنيسة من جهة البحر مفتوحاً والاسير الذي كان يخدم
 الكنيسة قد فقد فقال الملك ان كانت سفينتي في البحر قد فقدت فبنتي مريم فيم ابلا
 شك ولا ريب ثم ان الملك دعا رئيس الميناء وقال له وحق المسيح والدين الصحيح ان
 لم تلحق سفينتي في هذه الساعة بعسكر وقاتليني بمن فيها لاقتلنك أقيم قتله وأمثل بك
 أشنع مثله ثم صرخ عليه الملك فخرج من بين يديه وهو يرتعد وطلب الجوز من
 من الكنيسة وقال لهما ما كنت تسمعين من الاسير الذي كان عندك في شان بلاده
 من أي البلاده فقالت له كان يقول أنا من مدينة اسكندرية فلما سمع الرئيس

كلام الجحوز رجع من وقته وساعته الى الميناء وصاح على البحرية وقال لهم
 تجهزوا وحلوا القلوع ففعلوا ما أمرهم به وسافروا ولم ير الواسافرين ليلا ونهارا حتى
 أشرفوا على مدينة اسكندرية في الساعة التي طلع فيها نور الدين من السفينة وترك
 فيها السيدة مريم وكان من جملة الافرنج الوزير الاعور الاعرج الذي كان اشتراها
 من نور الدين فأرأوا السفينة مر بوطقة فعرفوها فربطوا مركبهم بعيداعنها وأتوا اليها
 في مركب صغيرة تعوم على ذراعين من الماء وفي تلك المركب مائة مقاتل ومعهم
 الوزير الاعور الاعرج لانه كان جبارا عنيدا وشيطانا مريدا وأصاحمحتالا ولم يزلوا
 سائرين الى أن وصلوا الى تلك السفينة فهجموا عليها وحلوا جملة واحدة فلم يجدوا
 فيها أحدا الا السيدة مريم فاخذوها هي والسفينة التي هي فيها بعد أن طلوعوا على
 الشاطئ وأخذوا ما يحتاجونه ثم عادوا من وقتهم وساعتهم الى مركبهم وقد فازوا
 ببعيتهم ومطلبهم من غير قتال ونزاع ورجعوا قاصدين بلاد الافرنج وسافروا وقد
 طاب لهم الريح ولم يزلوا مسافرين على حماية الى أن وصلوا الى مدينة افرنجية وطلوعوا
 بالسيدة مريم الى أبيها وهو في تحت مملكته فلما نظر اليها أبوها قال لها وبالك يا خاتنة
 كيف تركت دين الآباء والاجداد وحصن المسيح الذي عليه الاعتماد واتبع
 دين الاسلام الذي قام بالسيف على رغم الصليب والاصنام فقالت له مريم أنا مالي
 ذنب لاني خرجت في الليل الى الكنيسة لازور السيدة مريم وأتبرك بها فينما أنا في
 غفلة واذا بسراق المسلمين قد هجموا على سدوا في وشدوا وثاقي ووضعوني في
 السفينة وسافروا بي الى بلادهم فنادعتم وتكلمت معهم في دينهم الى أن فسكوا
 وثاقي وما صدقت أن رجالك أدركوني وخلصوني وأنا وحق المسيح والدين الصحيح
 قد فرحت بفسك ككي من أيديهم غاية الفرح واتسع صدري لذلك واشرح
 حيث خاصت من أسره ثم فقال لها أبوها كذبت يا واجرة يا طاهرة وحق محكم
 الإنجيل ومنزل التوريم والتحليل لا بد لي من أن أقتلك أقبج قتله وأمثلة بك أشنع
 مثله أما كفالك الذي فعلت به في الاول ودخل علينا محالك حتى رجعت اليه
 بهتانك واحتمالك ثم ان الملك أمر بقتلها ووصلها على باب القصر فدخل عليه
 الوزير الاعور في تلك الساعة وكان مغرما بمحبها قديما وقال له يا ولانا الملك لا تقتلها

وزوجني بها وأنا حرص عليها غاية الحرص وما أدخل علمي حتى أبني لها قصر من
 الحجر الجلود وأعلى بنيانه حتى لا يستطيع أحد من السارقين الصعود عليه وإذا
 فرغت من بنيانه ذبحت على بابها أربعين من المسلمين وأجعلهم قربانا للمسبح عنى
 وعنهما فأنعم عليه الملك بزواجها وأذن للقسيسين والرهبان والبطارقة أن يكلموا
 عليها فكلوا عليها للوزير الأعور وأذن أن يشرع والهاقي بنيان قصر مشيد
 يليق بها فسرعت العمال في العمل * هذا ما كان من أمر الملك وابنته (وأما) ما كان
 من أمر نور الدين والرجل العطار فان نور الدين لما توجه الى العطار استعار من
 زوجته ازارا ونقابا كتساء اسكندرية ورجع بهما الى البحر وقصد محل السفينة
 التي فيها مريم فوجد الجوقفرا والمزار بعيدا فصار قلبه حزينا فبكي بدمع متواتر
 وأنشد قول الشاعر

مرى طيف سعدى طارقا فاستفزني * سهيرا وصحبي في الفلاة رقود

فلما انتهينا للخيال الذي سرى * أرى الجوقفرا والمزار بعيد

فغشى نور الدين على شاطئ البحر يتلفت يمينا وشمالا فرأى ناسا مجتمعين على
 الشاطئ وهم يقولون يا مسلمون ما بقي لمدينة اسكندرية حرمة حتى صار الأفرنج
 يدخلونها ويختطفون من فيها ويعودون الى بلادهم على غاية الأمان ولا يخرج
 وراءهم أحد من المسلمين ولا من العساكر المغازين فقال لهم نور الدين ما الخبر
 فقالوا له ان مركبا من مراكب الأفرنج فيها عساكر قد هجموا في هذه الساعة على
 المناء وأخذوا سفينة كانت راسية هناك بمن فيها وراحوا على حماية الى بلادهم
 فلما سمع نور الدين كلامهم وقع مغشيا عليه فلما أفاق سأله عن قصته فأخبرهم بخبره
 من الأول الى الآخر فلما فهموا خبره صار كل منهم يشتمه ويسبهه ويقول له لاى
 شئ فعلت هذا ما تخرجها الا بازار ونقاب وصار كل واحد من الناس يقول له كلما
 مؤلما ومنهم من يقول خلوه في حاله يكفيه ما جرى له وصار كل واحد يوجهه
 بالكلام ويرميه بسهام الملام حتى وقع مغشيا عليه فبينما الناس مع نور الدين
 على تلك الحالة وإذا بصاحبه العطار قد أقبل فرأى الناس مجتمعين فغشى وجههم
 ليعرف الخبر فرأى نور الدين راقد ايمنهم وهو مغشى عليه فقعده عند رأسه ونبهه

فلما أفاق قال له يا ولدي ما هذا الحال الذي أنت فيه فقال له يا عم ان جاري نبي التي
ذهبت مني قد جئت بها من مدينة أربى في مركب وقاسيت ما قاسيت في النجى وبها
فلما وصلت بها الى هذه المدينة ربطت السفينة في البر وتركت التجارية فيها
وذهبت الى منزلك وأخذت من زوجتك مصاحح للتجارة لاخر جها بها من السفينة
الى المدينة فجاء الاقربج وأخذوا السفينة والتجارة فمأورا حوا على حماية حتى وصلوا
الى مركبهم فلما سمع العطار من نور الدين هذا الكلام تأسف على نور الدين
أسفا عظيما وحزن عليه حزنا جسيما وقال له يا ولدي لاى شئ ما أخرجتكم من
السفينة الى المدينة من غير ازار ونقاب ولسكن في هذا الوقت ما ينفع الكلام قم
يا ولدي واطلع معي الى المدينة لعل الله يرزقك ببجارية أحسن منها فتسلى بها عنها
واجمد الله على عدم خسارتك فيها شيئا بل حصل لك الربح فيها واعلم يا ولدي ان
الاتصال والانفصال بيد الملك المتعال فقال له نور الدين والله يا عم انى ما أقدر ان
أسلاها أبدا ولا أترك طلبها ولو نسيت من أجلها كأس الردى فقال له العطار
يا ولدي وأى شئ في ضميرك تريد ان تفعله فقال له نويت ان أرجع الى بلادهم
وأدخل مدينة افرنجية وأخاطبهم بنفسي فاما عليهم واما لها فقال له يا ولدي ان فى
الامثال السائرة ما كل مرة تسلم الحجره وان كانوا ما فعلوا بك فى المرة الاولى شيار بما
يقتلونك هذه المرة لا سيما وقد عرفوك سابقا فقال نور الدين يا عم دعنى أسافر
وأقتل من أجلها صبيرا وكان بمصادفة القدر مركب راسية فى الميناء مجهزة للسفر
وركابها قد قضت جميع أشغالها وفى تلك الساعة قلعوا وأوتادها فنزل فيها نور
الدين وسافرت تلك المركب مدة أيام وقد طاب لركابها الوقت والريح فيبينما هم
سائرون واذا بمركب من اربى الاقربج دائرة فى البحر الجاهج لا يرون مركبا الا
ويأخذونها خوفا على بنت الملك من سراق المسلمين واذا أخذوا مركبا يصلون
جميع من فيها الى ملك افرنجية فيذبجهم ويوفى بهم نذره الذى كان نذره من أجل
ابنته فرأوا المركب التى فيها نور الدين فأخذوها وأسروا كل من كان فيها وأتوا
بهم الى الملك والد السيد مریم فلما وقفوهم بين يديه وجدهم مائة رجل من
المسلمين فامر بذبجهم فى الوقت والساعة ومن جملتهم نور الدين فذبجهم كلهم ولم

يدين منهم الا نور الدين وكان الجبلاد آخره شفقة عليه لصغر سنه ورشاقة قدوة
فلما رآه الملك عرفه حق المعرفة فقال له أما أنت نور الدين الذي كنت عندنا في المرة
الاولى قبل هذه المرة فقال له ما كنت عندكم وليس اسمي نور الدين وإنما اسمي ابراهيم
فقال له الملك كذبت بل أنت نور الدين الذي وهبتك للجوزا الثمينة على الكنيسة
لتساعدنا في خدمة الكنيسة فقال له نور الدين يا مولاي أنا اسمي ابراهيم فقال له
الملك ان الجوزا الثمينة الكنيسة اذا حضرت ونظرتك تعرف هل أنت نور الدين أو
غيره فبينما هم في الكلام واذا بالوزير الاعور الذي تزوج مريم قد دخل في تلك
الساعة وقبل الارض بين يدي الملك وقال له أيها الملك اعلم ان القصر قد فرغ بنيانه
وأنت تعرف اني نذرت للمسيح اذا فرغت من بنائه أن أذبح على بابه أربعين
من المسلمين وقد أتيتك لا آخذ من عندك أربعين مسلما فاذبحهم وأوفى بهم نذر
المسيح وبدونون في ذمتي على سبيل العوض ومتى جاءني أسارى أعطيتك بدلهم
فقال الملك وحق المسيح ما بقي عندي غيره هذا الأسير وأشار الى نور الدين وقال له
خذه واذبحه في هذه الساعة حتى أرسل اليك البقية اذا جاءني أسارى من المسلمين
فعند ذلك قام الوزير الاعور وأخذ نور الدين وهضى به الى القصر ليذبحه على عتبة
بابه فقال له الدهانون يا حضرة الوزير قد بقي علينا من الدهان شغل يومين فأصبر
هنا وانخرج هذا الأسير حتى نفرغ من الدهان عسى أن ياتي اليك بقية الأربعين
فتذبح الجميع دفعة واحدة وتوفى بتذرك في يوم واحد فعند ذلك أمر الوزير بجدس
نور الدين فاخذوه مقيدا جائعا عطشانا يتحسر على نفسه وقد نظر الموت بعينه وانفق
بالأمراة القدر والقضاء المبرم أنه كان للثلاث حصانان أخوان شقيقان أحدهما اسمه
سابق والاخر لاحق وكانت اللوكة كاسرة بحمسة تحصيل واحد منهما وكان
أحدهما أشهب نقيا والاخر أدهم كالليل الحالك وكانت ملوك الجزائر جميعا
يقولون كل من سرق لنا حصانا من هذين الحصانين نعطي به جميع ما يطلبه من
الذهب الاجر والبر والجوهر فلم يقدر أحدهما على سرقة واحد من هذين
الحصانين فحصل لاحدهما مرض في عينيه فاخضر الملك جميع البياطرة لدوائه
فبهرزاعته كلهم فدخل على الملك الوزير الاعور الذي تزوج بنته مريم فرآه مهموما

من قبل ذلك الحصان فأراد أن يزيل همه فقال أيها الملك اعطني هذا الحصان وأنا
أداويه لك فاعطاه له فنقله في الاصبطل الذي فيه نور الدين محبوبس فلما فرق هذا
الحصان أخاه صاحب صحبة عظيمة وصله حتى أزعج الناس من الصباح فعرف انه
ما حصل منه هـ هذا الصباح الا لفرقة لا خيه فذهب وأعلم الملك بذلك فلما تحقق
الملك كلامه قال اذا كان ذلك حيوانا ولم يصبر على فراق أخيه فكيف بنوى العقول
ثم أمر النعمان أن ينقلوا الحصان عند أخيه بدار الوزير زوج مريم وقال لهم قولوا
للوزير ان الملك يقول لك ان الحصانين انعام من الله عليك لاجل خاطر ابنته مريم
فبينما نور الدين نائم في الاصبطل وهو مقيد مكبل اذ نظر الى الحصانين فوجد على
عيني أحدهما غشاوة وكان عنده بعض معرفة باحوال الخيل وممارسة دوائها فقال
في نفسه هذا والله وقت فرصتي فأقوم وأكذب على الوزير وأقول له ادأوى هذا
الحصان وأعمل له شيئا يتلف عينه فيقتلني وأستر بحج من هذه الحياة الذميمة ثم ان
نور الدين انتظر الوزير الى أن دخل الاصبطل ينظر الى الحصانين فلما دخل قال له
نور الدين يا مولاي أى شئ يكون لى عليك اذا ناداوا بيت لك هذا الحصان وأعمل له
شيئا يطيب عينيه فقال له الوزير وحياة رأسي ان داوية هـ أعتقك من هذا الذبح
وأخلك تتسنى على فقال يا مولاي مرفك يدي فأمر الوزير باطلاقه فنهض
نور الدين وأخذ زحاما بكرأوسحة وأخذ جيرا بلاطفي وخاطه بماء البصل ثم وضع
الجميع في عيني الحصان ورطهما وقال في نفسه الآن تغور عيناه فيقتلني وأستر بحج
من هذه المعيشة الذميمة ثم ان نور الدين نام تلك الليلة بقلب خال من وسواس
الهم وتضرع الى الله تعالى وقال يارب في علمك ما يعنى عن السؤال فلما أصبح الصباح
وأشرقت الشمس على الروابي والبطاح جاء الوزير الى الاصبطل وأزال الرباط عن
عيني الحصان ونظر اليهما فرآهما أحسن عيون ملاح بقدرة الملك الفتح فقال
له الوزير يا مسلم ما رأيت في الدنيا مثلك في حسن معرفتك وحق المسيح والدين
الصحيح أنك أعجبتني غاية الإعجاب فانه عجز عن دواء هذا الحصان كل يطار
في بلادنا حتى تحبر فيه ذوو الالباب ثم تقدم الى نور الدين وحل قيده بيده ثم ألبسه
حله سنية وجعله ناظرا على خيله ورتب له مرتبات وجرايات وأسكنه في طبقة

على الاصطبل وكان في العصر الجديد الذي بناه للسيدة مريم شباكاً مظل على بيت
الوزير وعلى الطبقة التي فيها نور الدين فقـمد نور الدين مدة أيام ياكل ويشرب
ويتلذذ ويطرب ويامر وينهى على خدمة الخيل وكل من غاب منهم ولم يعاق على
الخيل المر بوطه على الطواله التي فيها خدمته يرميه ويضربه ضرباً شديداً ويضع
في رجليه القيد الحديد وفرح الوزير بنور الدين غيبة الفرخ ولم يدر ما يؤول أمره
اليه وكان نور الدين ينزل كل يوم الى الحصانين ويمسحهما بيده لما يعلم من عزتهما
عند الوزير ومحبتة لهما وكان لذلك الوزير بنت بكر في غاية الجمال كأنها غزال
شارد أو غصن مائد فاتفق أنها كانت جالسة ذات يوم من الايام في الشباك المظل
على بيت الوزير وعلى المدكان الذي فيه نور الدين اذ سمعت نور الدين يغنى ويسلى
نفسه على المشقات بانشاده هذه الايات

* يا اذلاً أصبح في ذاته * منع ما يزهو بلذاته
لوعضك الدهر باقائه * لقلت من ذوق مراراته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بمراراته
لكن سلمت اليوم من غدره * ومن تناهيه ومن جوهره
فلا تلم من حار في أمره * وقال من فرط صباياته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بمراراته
كن عاذر العشاق في حالهم * ولا تكن عوناً للعدا لهم
اياك أن تنشد في حبيهم * بحجر ما من مر لوعاته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بمراراته
قد كنت من قبلك بين العباد * كمثل من بات خلى الفؤاد
لم أعرف العشق وطعم السهاد * حتى دعاني لمقاماته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بمراراته
لم يدر ما العشق وماذله * الا الذي أسقمه طوله
وضاع منه في الهوى عقله * وشربه من مر جرعاته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بمراراته

كم عين صب في الدجى أسهرا * واحرم الجفن لذيد الكرى
 وكم أسال دمه أهنرا * تجرى على الخد بلوغاته
 آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحرارته
 كم في الوري من مغرم مستهام * سهران من وجد بعيد المنام
 ألبسه ثوب الضنا والسقام * من قد اتقى عنه مناماته
 آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحرارته
 كم قل صبري وبري أعظمي * وسال دمي منه كالغندم
 من أهيف قد زاد فيه سقمي * قد كان حبلوا في مذاقاته
 آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحرارته
 مسكين من في الناس مثلي عشق * وبات في جنح الليالي أرق
 إن عام في بحر التجافي غرق * يشكو من العشق وزفراته
 آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحرارته
 من ذا الذي بالعشق لم يتل * ومن نجما من كيدته الأسهل
 ومن يعيش منه يعيش خلى * وأين من فاز براحته
 آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحرارته
 يارب دبر من به قد بلى * وأكفله أنعم أنت من كافل
 وارزقه منك بالثبات الجملى * والطف به في كل آفاته
 آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحرارته

فلما فرغ نور الدين من كلامه وخلص من شعره ونظامه قالت بنت الوزير في
 نفسها وحق المسيح والدين الصحيح ان هذا المسلم شاب مليح ولكنه لاشك أنه
 عاشق مفارق فياترى معشوقه هذا الشاب مليح مثله وهل عنده مثل ما عنده
 أم لا فان كان معشوقه ما يحا مثله يحق له اسالة العبرات وشكوى الصبايات وان
 كان غير مليح فقد ضيع عمره في الحسرات وحرم طعم اللذات وكانت مريم الزنارية
 زوجة الوزير بمحبوبة نور الدين قد نقلت الى العصر الجديد أمس ذلك اليوم علمت
 منها بنت الوزير ضيق الصدر فعمزمت على ان تذهب اليها وتحدثها بخبر هذا

السلام وما سمعت منه من النظام فما استتمت الفكر في هذا الكلام حتى
أرسلت خلفها السيدة مريم زوجة أبيها لاجل أن تؤانسها بالمحدث فذهبت إليها
فأنت صدرها ضيقة وأودعها جاريتها على خدها وهي تبكي البكاء الشديد الذي
ما عليه من مزيد وتكفركف العبرات وتنشد هذه الأبيات

مضى عمري وعمر الوجد باقى * وصدرى ضاق من فرط اشتياقي
وقلبي ذاب من ألم الفراق * يؤمل عود أيام التلاقي
* لينتظم الوصال على اندساق *
أقلوا اللوم عن مسلوب قلب * نحيل الجسم من شوق وكرب
ولا ترموا أحشاهم بمهم عتب * فإني أكون أشقى من محب
* فير العشق حلوا في المذاق *

فقال بنت الوزير للسيدة مريم مالك أيتها الملكة ضيقة الصدر هشتة الفكر
فلما سمعت السيدة مريم كلام بنت الوزير تذكرت ما فات من عظيم اللذات
وانشأت هذه الأبيات

ساصبر توطينا على هجر صاحبي * وأرسل در الدمع نثر على نثر
عسى فـرج ياتي به الله انه * طوى كل يسر تحت أجنحة العسر
فقال لها بنت الوزير أيتها الملكة لا تضيقى صدرا وقومي معي في هذه الساعة إلى
شباك القصر فان عندنا في الاصطبل شابا على حمار شيق القوام حلوا الكلام كأنه
عاشق مفارق فقالت لها السيدة مريم باي علامة عرفت أنه عاشق مفارق فقالت
لها بنت الوزير أيتها الملكة عرفت ذلك بانشاده القصائد والاشعار آناه الليل
وأطراف النهار فقالت السيدة مريم في نفسها ان كان قول بنت الوزير بيقين
فهذه صفات الكتب المسكين على نور الدين فياهل ترى هو ذلك الشاب الذي
ذكرته بنت الوزير ثم ان السيدة مريم زاد بها العشق والهيام والوجد والغرام
فقامت من وقتها وساعتها ومشت مع بنت الوزير إلى الشباك ونظرت منه فراه
محبوبها وسيدها نور الدين ودققت النظر فيه فعرفته حق المعرفة ولكنه سقيم من
كثرة عشقه لها ومحبتة اياها ومن نار الوجد وألم الفراق والوله والاشتياق قد زاد

به النجول وهو ينشد ويقول

الغاب - ملوك وعيني جاربه * ليس لها محاسبة مجازيه
 بين بكائي وسهادي والنجوى * والنوح والحزن على أحبابيه
 وأحرقني وأحسرتني والوعنى * تكاملت أعداءها ثمانيه
 وتابعتها خمسة في خمسة * ألاقفوا واستمعوا مقالته
 ذكره وذكره زفير وضنا * وفرط شوق واشتغال باليه
 محبة وغربة وصبوة * ولهفة وقرحة ترانته
 قل اصطبباري واحتمالي للهوى * لما نأى صبري دنت آجاله
 قد زاد في قلبي تباريح الجوى * ياسا ئلا عن نار قلبي ما هيه
 ما بال دمي موقداني ههجي * فنار قلبي لا تزال حاميه
 أصبحت في طوفان دمي غارقا * ومن لظى هذا الهوى في هاويه

فلما رأت السيدة مريم سيدها على نور الدين وسمعت بليغ شعره وبديع نظمه
 تحققت أنه هو وان كان كتمت أمرها عن بنت الوزير وقالت لها وحق المسبح
 والدين الصحيح ما كنت أحسب أن عندك خبرا يضيق صدرى ثم نهضت لوقتها
 وساعتها وقامت من الشيباك ورجعت إلى مكانها ومضت بنت الوزير إلى حالها
 ثم صبرت السيدة مريم برهة من الزمان ورجعت إلى الشيباك وجلست فيه
 وصارت تنظر إلى سيدها نور الدين وتأمل في لطفه ورقة معانيه فرأته كالبدرا إذا
 بدر في ليلة أربعة عشر ولكنه دائم الحسرات جاري العبرات وقد تذكر ماوات
 فأنشده هذه الأبيات

أملت وصل أحسبني مانته * أبدأومر العيش قد واصلته
 دمي يحاكي البحر في جريانه * وإذا رأيت عواذلي كفكفته
 أهلى داع دعي بفراقنا * لونت منه لسانه لقطعته
 لا عتب للإيام في أفعالها * فرجت بصرف المراجعتيه
 فلن أسير إلى سواكم قاصدا * والقلب في ساحاتكم خالفته
 من منه في من ظالم متحكم * يزداد نظاما كلما حكمتيه

ملكته روجي ليحفظ ملكه * فاضاعني وأضاع ماملبته
 أنفقت عمري في هواك وليأني * أعطى وصولا بالذي أنفقته
 بأبها الرشا الملم بهجتي * يكفي من الهجران ما قد ذقته
 أنت الذي جمع المحاسن وجهه * لكن عليه تصبري فرقته
 أحلته قلبي فحل به البلاء * اني لراض بالذي أحلته
 وجرت دموعي مثل بحر زاخر * لو كنت أعرف مسلك السلكته
 وخشيت خوفا أن أموت بحمرة * ويفوت مني كل ما أملت
 فلما سمعت مريم من نور الدين العاشق المفارق انشاد هذه الاشعار حصل عندها
 من كلامه اقشعرار فافاضت دموع العينين وأنشدت هذين البيتين
 بايت بمن أهوى فلما القيتـه * ذهت فلم أملك لسانا ولا طرفا
 وكنت معـدا للعتاب دفاترا * فلما اجتمعنا ما لقيت ولا حرفا
 فلما سمع نور الدين كلام السيدة مريم عرفها وبكى بكاء شديدا وقال والله ان هذه نعمة
 سيدتي مريم الزنارية بلاشك ولا ريب ولا رجم غيب فيما ترى هل ظني صحيح
 وانها هي أو غيرها ثم ان نور الدين زادت به الحسرات فتأوه وأنشد هذه الايات
 لما رأني لأئمي في الهوى * صادفت حبي في مكان رحيب
 ولم أفه بالعتب عند اللقاء * ورب عتب فيه برء الكتيب
 فقال ما هذا السكوت الذي * صدك عن هذا الجواب المصيب
 فقلت يا من قد غدا جاهـلا * بحال أهل العشق كالمستريب
 علامة العاشق في عشقه * سكوته عند لقاء الحبيب
 فلما فرغ من شعره أحضرت السيدة مريم دواة وقرطاسا وكتبت فيه بعد البسملة
 الشريفة (أما بعد) فسلام الله عليك ورجته وبركاته وأخبرك ان الجارية مريم
 تسلم عليك * وهي كثيرة الشوق اليك * وهذه مراسلاتك اليك * فساعة وقوع هذه
 الورقة بين يديك * انفض من وقتك وساعتك واهتم بما تر يده منك غاية الاهتمام
 والمخدر كل المخدر من المخالفة ومن أن تنام * فاذا مضى ثلث الليل الاول فان تلك
 الساعة من أسعد الاوقات فلا يكون لك فيها شغل الاشد المحصنين وتخرج بهما

خارج المدينة وكل من قال أين أنت ذاهب فقل أنا ذاهب أسيرهما فإذا قلت ذلك لا يخذلك أحد فان أهل هذه المدينة واثقون بقفل جميع الابواب وانتظرنى حتى أجيء اليك ثم ان السيدة مريم لفت الورقة في منديل حرير ورمته الى نور الدين من الشباك فاخذها وقرأها وفهم ما فيها وعرف انها بخط السيدة مريم فقبلها ووضعها بين عينيه وتذكر ما حصل له معها من طيب الوصال فاسأل دمع العينين وأنشد هذين البيتين

أنا في كتاب منكم جنح ليلة * فهيجني شوق اليكم وأبراني
وذكرني أنسا مضي بوصالكم * فسبحان رب بالتفرق أبلاني

ثم ان نور الدين لما جن عليه الليل اشتغل باصلاح الحصانين وصبر حتى مضى من الليل ثلثة الاول ثم قام من وقته وساعته الى الحصانين ووضع عليهما سرجين من أحسن السروج وخرج من باب الاصطبل وقفل الباب وسارهما الى باب المدينة وجلس ينتظر السيدة مريم هـ. ذاما كان من أمر نور الدين (وأما) ما كان من أمر الملكة مريم فانها ذهبت من وقتها وساعتها الى المجلس الذي هو معد لها في ذلك القصر فوجدت الوزير الأعور جالساً في ذلك المجلس متمكناً على مخدعة من ريش النعام وهو مستح أن يعيده اليها أو يخاطبها فلما رأته ناجت ربهاني قلبها وقالت اللهم لا تبغضه مني أربا ولا تحمكم علي بالتجاسة بعد الطهارة ثم أقبلت عليه وأظهرت له المودة وجلست في جانبه ولا طفته وقالت له يا سيدي ما هذا الاعراض عناهل هو منك تيه ودلال علينا والكن صاحب المثل السائر يقول اذا بار السلام سلمت القعود على القيام فان كنت يا سيدي الوزير ما تجي عن سيدي وتخطبني أجيء أنا عندك وأخاطبك فقال لها الوزير بالفضل والجميل لك يا مليدة الديار الافرنجية والبلاد الرومية وهل أنا الامن بعض خدامك واقل غلمانك وانما أنا مستح أن أقدم على مخاطبتك الفخيمة أيتها الملكة العظيمة ووجهي منك في الارض فقالت له دعنا من هذا الكلام وأتنا بالماكل والمشرب وهي لنا أباريق المدام فعند ذلك صاح الوزير على جواريه وخدومه وأمرهم بأحضار الماكل والمشرب فقدموا له سفرة فيها مدرج وطاروسج في البحار من سمان وأفراخ الحمام ورضيع الضان

وأوز سمين ودجاج محروم من غالب أنواع الألوان نبت السيدة مريم يدها إلى السفر
 وأكلت وصارت تلقيم الوزير وتقبله في فمه ومازالا ياكلان حتى اكتفيا من الاكل
 ثم غسلتا ايديهما وبعد ذلك رفعت الخدام سفرة الطعام وأحضروا سفرة المدا
 فصارت مريم تملأ وتشرب وتسقيه وزادت في تهليل مراجعها أكثر مما كان يكفيه حتى
 كاد أن يطير قلبه من الفرح واتسع صدره وانشرح فلما غاب عقله عن الصواب وتمكن
 منه الشراب مدت يدها إلى جيبها وأخرجت منه قرصا من البنج البكر المغربي الذي
 اذا شم منه الفيل أدنى رائحة نام جله من الايام وكانت أعدته لهذه الساعة ثم خافت
 الوزير وفركته في القدر ولاته وأعطته اياه فطار عقله من الفرح وما صدق انها
 تناولته اياه فتناول القدر وشربه فما استقر في جوفه حتى حرص بعالي الارض في
 الحال فقامت السيدة مريم على قدميها وصعدت إلى نرجين كبيرين وملاهما مما خف
 حمله وغلا ثمنه من الجواهر واليواقيت وأصناف المعادن المثلثة ثم جلت معها شيا
 من الماكل والمشرب ولبست آلة الحرب والكفاح * من سائر أنواع السلاح واخذت
 معها النور الدين مايسر من الملابس الملوكية الفاخرة وأهبة السلاح الفاخرة ثم
 انها جلت النرجين على اكفها فرحة مما أصابته من حصول الارب والمسير صحبة
 محبوبها إلى بلاد العرب * وكانت ذات قوة وشجاعة وتوجهت إلى نور الدين هذا
 ما كان من أمر مريم * وأما ما كان من أمر نور الدين * العاشق الحزين فإنه قد عد على
 باب المدينة ينتظرها ومقاود الحصانين في يده فارسل الله عز وجل عليه النوم فنام
 وسبحان من لا ينام وكانت ملوك الجزائر في ذلك الزمان قد بذلوا المال رشوة على
 سرقة هذين الحصانين أو أحدهما وكان في تلك الايام عبد اسود تربي بالجزائر
 يعرف بسرقة الخيل فصارت ملوك الجزائر ينج برشونه بمال كثير لا جمل أن يسرق
 الحصانين ووعدوه انه ان سرق الحصانين يعطوه جائزة كاملة ويخامروا عليه خلعا سنية
 وقد كان لذلك العبد زمان طويل يدور في مدينة افرنجة وهو مختلف فيما فلم يقدر على
 أخذ الحصانين وهما عند الملك فلما وهبها للوزير الاعور ونقاها إلى الاصطبل فرح
 العبد فرحا شديدا وطمع في أخذهما وقال وحق المسيح الآن اطمانت على
 سرقتما ثم ان العبد خرج في تلك الليلة فاصدا ذلك الاصطبل ليسرق الحصانين

فبينما هو ماش اذلاحت منه التفاتة فرأى شخصاً قائماً وهو نور الدين ومقاوم
المحصنين في يده فعرّفهما وتقدم اليه ونزع المقاوم من رأسهما ومشي قليلاً وأراد
أن يركب واحداً ويسوق الآخر قدماه واما بالسيدة مريم قد اقبلت وهي حاملة
للخروجين على كتفها فظننت أن العبد نور الدين قنأولته أحد الخرجين فوضعه على
المحصان ثم ناوتها الثاني فوضعه على المحصان الآخر وهو ساكت وهي تظن أنه
نور الدين ثم انها خرجت من باب المدينة والعبد ساكت فقالت له ياسيدي نور الدين
مالك ساكت فالتفت العبد اليها وهو غضب وقال لها أي شيء تقولين باجارية
فسمعت بربرة العبد فعرفت انها غير لغة نور الدين فرفعت رأسها اليه ونظرته فوجدت
له مناخير كالبريق فلما نظرته صار الضيا في وجهها ظلاماً فقالت له من تكون
يا شيخ بني حام وما اسمك بين الانام فقال لها يا بنت اللثام أنا اسمي مسعود سراق
الخيل والناس نيام فاردت عليه بشيء من الكلام بل جردت من وقتها السيف
وضربت به على عاتقه فطاع يلمع من علائقه فوقع صريعاً على الارض يختبئ
في دمه ويجعل الله بروحه الى النار وبتس القرار فعند ذلك أخذت السيدة مريم
المحصنين وركبت واحداً منهما وقبضت على الآخر بيدها ورجعت على عقبها
تفتش على نور الدين فلقبته راقد في المكان الذي وعدته بالاجتماع فيه والمقاوم
في يده وهو نائم يخط في نومه ولم يعرف يديه من رجليه فخرزت عن ظهر المحصان
ولكزته بيدها فأنثبه من نومه مرعوباً وقال لها ياسيدي الحمد لله على مجيئك سالمة
فقات له فم اركب هذا المحصان وأنت ساكت فقام وركب المحصان وركبت
السيدة مريم المحصان الثاني وخرجا من المدينة وسارا قليلاً وبعد ذلك التفتت
مريم الى نور الدين وقالت له اما قات لك لانهم فانه لا أفلح من ينام فقال ياسيدي
أنا ما كنت الامن برد فؤادي بعبادك وأي شيء جرى ياسيدي فاخبرته بحكاية العبد
من المبتدأ الى المنتهى فقال لها نور الدين الحمد لله على السلامة ثم جدا في اسراع
المسير وقد سلما أمرهما الى اللطيف الخبير وصاروا يتحدثان حتى وصلوا الى العبد
الذي قتله السيدة مريم فراه مرياً في التراب كأنه عفرية فقالت مريم لنور الدين

انزل جرده من ثيابه وخذ سلاحه فقال لها يا سيدتي والله أنا لا أقدر أن أنزل عن
 ظهرا الحصان ولا أقف عنده ولا أتقرب منه وتجب نور الدين من خلقتة وشكر
 السيدة مريم على فعلها وتجب من شجاعتها وقوة قلبها ثم سارا ولم يزل السائرين
 سيرا حتى ثابا بقية الليل الى أن أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح وانتشرت الشمس
 على الروابي والبطح فوصلا الى مرج أبيض فيه الغزلان تفرح وقد اخضرت منه
 الجوانب وتشككات فيه الاثمار من كل جانب وأزهاره كبطون الحياة والطيور
 على غصون أشجاره عاكفات يغردين بحلاوة الاصوات باختلاف اللغات وجداوله
 تجري مختلفة الصفات كما قال فيه الشاعر وأجاد ووفى بالمراد

وقانا لفحة الرضاء واد * وقاه مضاعف الغيث العيم
 نزلنا دوحه فغنا عينا * حنو المرضعات على الفطيم
 وأرشفنا على ظما زلالا * أذمن المدامة للتدويم
 يصد الشمس أنى واجهتنا * فحجبها وياذن للنسيم
 يروع حصاه حالية العذارى * فتلمس جانب العقد النظيم
 * وكما قال الآخر

واذا نرخم طيرة وغديرة * يشتاقه الولهان في الاسحار
 فكانه الفردوس في أفنانه * ظل وفا كهة وماء جارى

فعند ذلك نزلت السيدة مريم هي ونور الدين ليسترحا في ذلك الوادي فلما انزل به
 أكلام من أثماره وشربا من أنهاره واطلقا الحصانين ياكلان في المرعى فصارا
 ياكلان ويشربان من ذلك الوادي وجلس نور الدين هو ومريم يتحدثان ويتذكران
 حكايتهم وما جرى لهما وكل منهما يشكو صاحبه مالا فاه من أم الفراق وما قاساة
 من البعد والاشتياق فبينما هما كذلك واذا بغير قد تار حتى سدا الاقطار وسمعا
 صهيل الخيل وقععة السلاح وكان السبب في ذلك ان الملك لما زوج ابنته للوزير
 ودخل عليها في تلك الليلة وأصبح الصباح وأراد الملك أن يصبح عليها كما جرت به
 العادة عند الملوك في بناتهم فقام وأخذ أقشعة من الحرير ونثر الذهب والفضة
 ليحاطفها الخدمة والمواشيط ولم يزل الملك يتمشى هو وبهض الغلمان الى ان وصل

الى القصر الجديد وطلع فيه فوجد الوزير مرميا على الفراش لم يعرف رأسه من
رجليه فالتفت الملك في القصر يمينا وشمالا فلم ير ابنته فيه فتكدر حاله واشتغل باله
وأمر باحضار الماء المصن والحل البكر والكندر فلما أحضر والده ذلك خلطها ببعضها
وسعط الوزير بها ثم هزه فخرج البنيج من جوفه كقطع الجبن ثم ان الملك سعط الوزير
بذلك ثانيا مرة فأنبته فسأله عن حاله وعن حال ابنته مريم فقال له أيها الملك الاعظم
لا أعلم لي بها غير أنها سقتني قدحاً من الخمر سيدها فن ذلك الوقت ما عرفت روجي الا في
هذه الساعة ولا أعلم ما كان من أمرها فلما سمع الملك كلام الوزير صار الضيا في وجهه
ظلاما وجرد السيف من قرابه وضرب به الوزير على رأسه فمخرج يلمع من أضراسه
ثم ان الملك أرسل من وقته وساعته الى الغلمان والسياس فلما حضر واطلب منهم
المحصنين فقالوا له أيها الملك ان المحصنين فقد في هذه الليلة وكبيرنا فقد دمه هما
أيضا فاننا لما أصبحنا وجدنا الابواب كلها مفتحة فقال الملك وحق ديني وما يعتقده
يقيني ما أخذ المحصنين الا ابنتي هي والاسير الذي كان يخدم الكنيسة وكان قد
أخذها في المرة الاولى وعرفته حق المعرفة ولم يخلصه من يدي الا هذا الكاب الوزير
الاعور وقد جوزى بفعله فلارحم الله عظامه ثم ان الملك قام من وقته وساعته ودعا
باولاده الثلاثة وكانوا ابطلا شجعانا كل واحد منهم بم يقوم بالف فارس في حومة
الميدان ومقام الضرب والطعان فصاح الملك عليهم وأمرهم بالركوب فركبوا وركب
الملك بجملتهم مع خواص بطارقتهم وأر باب دولته وأكابرههم وساروا يتبعون
أنارهما فالحقوهما في ذلك الوادي فلما رأتهم مريم نهضت وركبت جوادها وتقلبت
بسيفها وجمات آلة سلاحها وقالت لنور الدين ما حالك وكيف قلبك في القتال
والحرب والنزال فقال لها ان ثباتي في النزال مثل ثبات الوتد في النخال وانشد

يقول يا مريم اطرحي السيم عتابي * لا تصدي قتلي وطول عذابي
من أين لي اني أكون محاربا * اني لافزع من نعيق غراب
واذا نظرت الغار أفزع خيفة * وأبول من خوفي على أنوابي
انا لأحب الطعن الاخذلوة * والكس يعرف سطوة الأرباب
هذا هو الرأي السديد وما يرى * من دون هذا الرأي غير صواب

فلما سمعت مريم من نور الدين هذا الكلام والشعر والنظام أظهرت له الضحك
والابتسام وقالت له يا سيدي نور الدين الهمام الزم مكانك وأنا أكفيك شرهم
ولو كانوا عدد الرمل ثم انها قامت من وقتها وساعتها وتجهت للقتال وأطلقت من
يدها طرف العنان وأدارت الرمح من جهة السنان فخرج ذلك الحصان من تحتها
كأنه الريح الهبوب أو الماء اذا اندفق من ضيق الانبوب وقد كانت مريم أشجع
أهل زمانها وأفرس أهل عصرها وأواها لان أباهاعلمها الر كوب على ظهور
الخيل وخوض بحار الحرب في ظلام الليل وقالت لنور الدين اركب جوادك وكن
خلف ظهري واذا انهزمتنا فاحرص على نفسك من الوقوع فان جوادك ما يلحقه لاحق
فلما نظر الملك الى ابنته مريم عرفها غاية المعرفة والتفت الى ولده الا كبر وقال له
يا برطوط يا ما لقب برأس القلوط ان هذه اختك مريم لاشك فيها ولا ريب قد
جاءت وطلبت حربنا وقتالنا فبرز اليها واجل عليها وليكن وحق المسيح والدين
الصحيح انك ان ظفرت بهم لا تقتلها حتى تعرض عليها دين النصراني فان رجعت
الى دينها القديم فارجع بها أسيرة وان لم ترجع اليه فاقتلها أقبح قتلة ومثلها
أشنع مثله وكذلك هذا الملعون الذي معها مثل به أقبح مثله فقال له برطوط
السمع والطاعة ثم برز الى أخته مريم من وقته وساعته وجل عليها فلاقته وحملت
عليه وذنبت منه وتقربت اليه فقال لها برطوط يا مريم أما يكفي ماجرى منك
حيث تركت دين الاباء والاجداد واتبعت دين السواحسين في البلاد يعني دين
الاسلام ثم قال وحق المسيح والدين الصحيح ان لم ترجعي الى دين آباءك وأجدادك
من الملوك وتسلكي فيه احسن السلوك والاقفلك اشرف قتله وأمثل بك أقبح مثله
فضحكت مريم من كلام أخيها برطوط وقالت هيات أن يعود ما فات أو يعيش من
مات بل اجرعك أشد الحسرات أنا والله لست براجعة عن دين محمد بن عبد الله الذي
عم نفعه وهداه فانه هو الدين الحق فلا أترك الهدى ولو سقيت كؤوس الرذا فلما
سمع الملعون برطوط من أخته هذا الكلام صار الضيا في وجهه كالظلام وعظم
ذلك عليه وكبر لديه فالتهب بينهما القتال وغاص الاثنان في الاودية العراض
الطوال وصبرا على الشدايد والاهوال وشخصت لهما الابصار فاخذها الانهار

ثم تجاؤا لأملياً واعتراكا طويلاً وصار برطوط كلما يفتح لاختمه مريم بابا من الحرب
تبطله عليه وتسد به بحسن صناعتها وقوة براعتها وشدة معرفتها وفروصيتها ولم يكن
لذو الدين شغل الا التضرع والابتهال لانه لا طاقة له في النزال ولا مقاومة
الابطال في الحرب والقتال ولم تنزل السيدة مريم وأخوها برطوط على تلك الحالة
حتى انعدت على رؤسهم مما الغبار وغاب الفارسان عن الابصار ولم تنزل مريم
تجاؤله وتجاؤله وتسد عليه طريقه حتى كل من ألم الحرب وبطلت همته واضمحل
عزمه وضعفت قوته فضربتته بالسيف على عاتقه فخرج يلمع من علائقه وعجل
الله بروحه الى النار وبئس القرار ثم ان مريم جالت في حومة الميدان وموقف
الحرب والطعان وطلبت البراز وسالت الانجاز وقالت هل من مقاتل هل من
مناجز لا يبرز لي اليوم كسلان ولا عاجز لا يبرز لي الا ابطال اعداء الدين لاسقيم
كاس العذاب المهين يا عبدة الاوثان وذوى الكفر والطغيان هذا يوم تبيض
فيه وجوه أهل الايمان وتسود وجوه أهل الكفر بالرحن فلما رأى
الملك ولده الكبير قد قتل لطم على وجهه وشق أثوابه وقال آه من فرقة
الانسان أحبابه وبعد ذلك صاح على ولده الاوسط وقال يا برطوس يا ملقب
بخزء السوس ابرز يا ولدي بسرعة الى قتال أختك مريم وخذ منها ثار أخيك
برطوط وانثني بها أسيرة ذليلة حقة فإلة فقال له يا أبت السمع والطاعة ثم انه برز
لاخته مريم وجرل عليها فلاقته وجملت عليه وتقدمت بكلماتها اليه وتقاتلت
هي واياه قتالاً شديداً شديداً من القتال الاول فرأى أخوها الثاني نفسه عاجزاً عن
قتالها من عظم ما نظرم من قوة شجاعتها وشدة نزالها فاراد الفرار والهرب فلم
يكنه ذلك من عظم باسها لانه كلما ركن الى الفرار تقربت منه ولاصقته وضايقته
ثم ضربته بالسيف على رقبتة فخرج يلمع من لبتة والحقته باخيه وبعد ذلك
جالت في حومة الميدان وموقف الحرب والطعان وقالت أين الفرسان
والشجعان أين الوزير الاعور والاعرج صاحب الدين الاعوج فعند ذلك
صاح أبوها بقلب جريح وطرف من الدمع قريح وقال انها قتلت ولدى الاوسط
وحق المسحج ثم انه صاح على ولده الصغير وقال له يا فتيان يا ملقب بسلم الصبيان

اخرج باولدى الى قتال أختك وخذ منها ثارا أخويك وصادمها مالك أو عليك
 وان ظفرت بها فاقتلها اقبج قتله ومثل بها اقبج مثله فعند ذلك برز لها
 أخوها الصغير وحمل عليها فلاقته بهمتا وبراعتها وجلت عليه بحسن صناعتها
 وقوة شجاعته اومه رفتهما بانواع ملاعب الحرب وفروسيتها وقالت له يا عدو الله
 وعدو المسامحة من لالحقتك يا أخويك الطاغين الباغين الى النار وبئس مثوى
 الكافرين ثم انها جذبت سيفها من عنقه وضربت به عنقه فقطعت عنقه وذراعيه
 وقد ألحقت به باخويه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار فلما رأى المطارقة
 والفرسان الذين كانوا راكبين مع أبيها أولاد الملك الثلاثة قد قتلوا وكانوا أشجع
 أهل زمانهم وقع في قلوبهم الرعب من السيدة مريم وأدهشتهم الهيبة ونكسوا
 رؤسهم الى الارض وأيقنوا بالهلاك والدمار والذل والبوار وأحرقت قلوبهم
 من الغيظ بلهب النار فولوا الادبار وركنوا الى الفرار فلما نظر الملك الى أولاده وقد
 قتلوا الى عساكره وقد انهزموا أخذته الحيرة والانهار واحترق قلبه بلهب النار
 وقال في نفسه ان السيدة مريم قد استقامت بنا وان خاطرت بنفسى وبرزت اليها
 وحدي ربما غلبت على وقهرتني فتقتاني أشنع قتله وتمثل بي اقبج مثله كما قتلت
 اخوتها لانها لم يبق لها فينار جاء ولاننا في رجوعها طمع والراى السيدان احفظ
 حرمتى وارجع الى مدينتى واقعد على تخت مملكتى لئلا يذهب من يدي
 وابقى فاقداله كما فقدت اولادى الذين كانوا ساعدي وعضدي ثم ان الملك ارنجى
 عنان فرسه ورجع الى مدينته ومحل مملكته فلما استقر في قصره انطلقت في قلبه
 النار من اجل قتل اولاده الثلاثة وانهزام عسكره وهتك حرمة ما استقر نصف
 ساعة حتى طلب ارباب دولته وكبراء مملكته وشكاليهم فعل ابنته مريم معه من
 قتلها اخوتها وهم اولاده الثلاثة وملاقاه من القهر والحزن واستشارهم فاشاروا
 عليه كلهم أن يكتب كتابا الى خليفة الله في أرضه أمير المؤمنين هرون الرشيد
 ويعلمه بهذه القضية فيكتب الى الرشيد بمكتوبه بامضونه بعد السلام على أمير
 المؤمنين ان لنا بنتا اسمها مريم الزنارية قد أفسدها علينا أسيران من أسراء المسلمين
 اسمهما نور الدين على ابن التاجر تاج الدين المصري وأخذها اليه لا يخرج بها الى

ناحية بلادها وأنا أسأل فضل مولانا أمير المؤمنين أن يكتب إلى سائر بلاد المسلمين
 بتخصيلها وإرسالها إلينا مع رسول أمين من خدم حضرة أمير المؤمنين ومن جهة
 مضمون ذلك الكتاب أننا نجعل لكم في نظير مساعدتكم لنا على هذا الأمر نصف
 مدينة رومة الكبرى لتبنيوا فيها مساجد للمسلمين ويحمل إليكم خراجها وبعدها أن
 كتب الكتاب برأى أهل مملكته وكبراء دولته طواه ودعا بوزيره الذي جعله
 وزيراً مكان الوزير الأعور وختمه له هو وأكابر دولته بعد أن وضعوا خطوط أيديهم
 فيه ثم قال لوزيره إن أتيت بها فلك عندى أقطاع أميرين وأخضع عليك خلعة
 بطرازين ثم ناواه الكتاب وأمره أن يسافر إلى مدينة بغداد دار السلام ويوصل
 الكتاب إلى أمير المؤمنين من يده إلى يده فسافر الوزير بالكتابة وسار يقطع
 الأودية والغفار حتى وصل إلى مدينة بغداد فلما دخلها مكث فيها ثلاثة أيام حتى
 استقر واستراح ثم سأل عن قصر أمير المؤمنين هرون الرشيد فدلوه عليه فلما
 وصل إليه طلب أذن من أمير المؤمنين في الدخول عليه فأذن له في ذلك فدخل عليه
 وقبل الأرض بين يديه وناوله الكتاب الذي من ملك الأفرنجية وصحبه من الهدايا
 والتحف النفيسة البهيبة ما يليق بأمير المؤمنين فلما فتح الخليفة الكتابة قرأه
 وفهم مضمونه أمر وزراءه من وقته أن يكتبوا إلى سائر بلاد المسلمين
 ففعلوا ذلك وبيدوا في المكتيب صفة مريم وصفة نور الدين وأنهما هاربان فكل
 من وجدتهما فليقبض عليهما ويرسلهما إلى أمير المؤمنين وحذر وهم من أن يعطوا
 في ذلك أمهالا أو أهالا أو غفلة ثم ختمت الكتابة وأرسلت مع السعاة إلى الأعمال
 فبادروا في امتثال الأمر وساروا يفتشون في سائر البلاد على من يكون بهذه الصفة
 هذا ما كان من أمر هؤلاء الملوك وأتباعهم وأما ما كان من أمر نور الدين المصري
 ومريم الزنارية بنت ملك الأفرنجية وأنهما رجا بعد أن هزما الملك وعساكره وسارا إلى بلاد
 الشام وقد ستر عليهما الستار فوصلا إلى مدينة دمشق وكانت الطلائع التي أرسلها
 الخليفة قد سبقتهما إلى دمشق بيوم فعلم أمير دمشق أنه مأمور بالقبض عليهما متى
 وجدتهما بالحضره ما بين يدي الخليفة فلما كان يوم دخولهما إلى دمشق أقبل
 عليهما الجواسيس فسألوهما عن اسميهما فاخبراهما بالصحيح وقصا عليهما قصتهما

وجميع ماجرى عليهما فعرقوهما وأخذوهما وساروا بهما إلى أمير دمشق فأرسلهما
 إلى الخليفة بمدينة بغداد دار السلام فلما وصلوا إليها استأذنا في الدخول على أمير
 المؤمنين هرون الرشيد فأذن لهم فلما دخلوا عليه قبلوا الأرض بين يديه وقالوا له يا أمير
 المؤمنين إن هذه مريم الزنارية بنت ملك أفرنجية وهذا نور الدين المصري الأسير
 الذي أفسدها على أبيها وسرقها من بلادها وهرب بها إلى دمشق وجدناهما أوقت
 دخولهما دمشق وسألناهما عن أسماءهما فأجابونا بالصحيح فعند ذلك أتينا بهما
 وأحضرناهما بين يديك فنظر الخليفة إلى مريم فرآها رشيقة القوام فصيحة الكلام
 ملاحظة أهل زمانها فريدة عصرها وأوانها حلوة اللسان ثابتة الجنان فلما وصلت
 إليه قبلت الأرض بين يديه ودعت له بدوام العز والنعم وزوال البؤس والنقم
 وتنجح الخليفة حسن قوامها وعذوبة ألفاظها وسرعة جوابها فقال لها هل أنت
 مريم الزنارية بنت ملك أفرنجية قالت نعم يا أمير المؤمنين وإمام الموحدين وحاقي
 حومه الدين وابن عم سيد المرسلين فعند ذلك التفت الخليفة فرأى عليا نور الدين
 المصري شابا مليحا حسن الشكل كأنه البدر المنير في ليلة تمامه فقال له الخليفة هل
 أنت علي نور الدين الأسير ابن التاجر تاج الدين المصري قال نعم يا أمير المؤمنين
 وعمدة القاصدين فقال الخليفة كيف أخذت هذه الصبية من مملكة أبيها وهربت
 بها فصارت نور الدين يحدث الخليفة بجميع ماجرى له من أول الأمر إلى آخره فلما
 فرغ من حديثه تعجب الخليفة من ذلك غاية التعجب وأخذ من العجب فرط الطرب
 وقال ما أكثر ما تقاسيه الرجال ثم انه التفت إلى السيدة مريم وقال لها يا مريم اعلمي
 أن والدك ملك أفرنجية قد كاتبنا في شأنك فاتفقوا بين قالت يا خليفة الله في أرضه
 يا قائم أمة نبيه وفرضه خلد الله عليك النعم وأحارك من البؤس والنقم اني قد
 دخلت في دين الاسلام لانه هو الدين القويم الصحيح وتركت ملة الكفرة الذين
 يكذبون على المسيح وقد صدقت مؤمنة بالله الكريم ومصدقة بما جاء به رسوله
 الرحيم أعبد الله سبحانه وتعالى أوحده واسجد خاضعة اليه وأمجده وأنا قائله بين
 يدي الخليفة انشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله أرسله بالهدى ودين
 الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فهل في وسعك يا أمير المؤمنين أن تقبل

كتاب ملك المؤمنين وترساني الى بلاد الكافر بن الذين بشر كون بالملك العسلام
 ويعظمون الصليب ويعبدون الاصنام ويعتقدون الوهية عيسى وهو مخلوق بين
 الانام فان فعلت في ذلك بالخليفة الله اتعلق باذيالك يوم العرض على الله وأشكوك
 الى ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يوم لا ينفع مالا ولا بنون الا من اتى الله
 بقلب سليم فقال أمير المؤمنين يا مريم معاذ الله ان أفعّل ذلك ابدا كيف ارد امرأة
 مسلمة موحدة بالله ومصدقة برسوله الى ما نهى الله ورسوله عنه فقالت مريم اشهد
 ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فقال لها الخليفة يا مريم بارك الله فيك وزادك
 هداية الى الاسلام وحيث كنت مسلمة موحدة بالله فقد صار لك علينا حق واجب
 وهو اني لأفرط فيك أبدا ولو بذل لي من أجلك ملء الارض جواهر او ذهبا فطبي
 نفسا وقرى عينا وان شري صدر او لا يدلن خاطر ك الاطيبا فهل رضيت ان يكون
 هذا الشاب على المصري لك بعلا وتكوني انت له اهلا فقالت يا امير المؤمنين كيف
 لا ارضى ان يكون لي بعلا وقد اشتراني بماله واحسن الى غاية الاحسان ومن تمام
 احسانه انه خاطر بروحه من اجلي مرات عديدة فزوجها به الخليفة هارون الرشيد
 وامهرها من عنده بعد ان احضر القاضي والشهودوا كبر دولته وعقد عليها النور
 الدين وكان يوما مشهودا ثم بعد ذلك التفت امير المؤمنين الى وزيره ملك افرنجة وكان
 حاضرا في تلك الساعة وقال له هل سمعت كلامها كيف ارسلها الى ابها الكافر
 الطاغى وهي مسلمة وربها ساءها واغلاظ عليها خصوصا وقد قتلت اولاده واتحمل
 انا ذنبا يوم القيامة وقد قال الله تعالى ولن يجعل الله لكافرا بن على المؤمنين سبيلا
 فارجع الى ملكك وقل له ارجع عن هذا الامر ولا تطمع فيه وكان ذلك الوزير
 أحمق فقال للخليفة يا امير المؤمنين وحق المسيح والدين الصحيح لا يمكن الرجوع
 بدون مريم ولو كانت مسلمة لاني لو رجعت الى ابها بدونها قتلتني فقال الخليفة خذوا
 هذا الملعون واقتلوه وأنشده هذا البيت

هـ - هذا جزاء من عصى • من فوقه وعصانيه

ثم امر بضرب عنق ذلك الوزير فقالت السيدة مريم يا امير المؤمنين لا تتعجب سيفك
 يدم هذا الملعون ثم جردت سيفها وضربت به فاطاحت رأسه عن جنته فذهب الى

حار البوار وبئس القرار فتعجب الخليفة من صلابته ساعدها وقوة قلبها ثم خلع على
 نور الدين خلعة سنوية وأقر دألهما مكانا في قصره ورتب لهما المرتبات مما يحتاجانه
 وأمر أن ينقل اليه - ما جميع ما يطلبانه من الملابس والمفارش والاواني النفيسة
 واقام في بغداد مدة من الزمان وهما في غاية اللذة والسرور وبعد ذلك اشتاق نور
 الدين الى امه وابيه فعرض الامر على الخليفة وطلب منه ان يوجهه الى بلاده
 لزيارة والديه واقاربه ودعا بمر يم واحضرها بين يديه فاحازته بالتوجه ووزوده من
 الهدايا والتحف المتممة واوصاه بما يبعضهما ثم امر بالمكاتيب الى امراء مصر
 المحروسة وعلماؤها وكبرائها بالوصية على نور الدين هو واهله وعماله وكرمهم غاية
 الاكرام فلما وصلت الاخبار الى مصر المحروسة فرح التجار تاج الدين بعود ولده
 نور الدين وكذلك امه فرحت بذلك غاية الفرح وخرج للقائه الكبراء من الامراء
 وارباب الدولة والرؤساء على حسب وصية الخليفة فلاقوا نور الدين وكان يوما مشهودا
 للعالمين اجتمع فيه المحب والمحبوب واتصل الطالب بالمطلوب وصارت تعمل لهم
 الضيافات في كل يوم على كل واحد من الامراء والاحباب الطرفاء وفرحوا بهم
 وفرح الزائد وأكرمهم الاكرام المتصاعد ولما اجتمع نور الدين بوالديه فرح به غاية
 الفرح وزال عنهما الهم والترح وكذلك فرح بالسيدة مريم وأكرمها غاية الاكرام
 ووصلت اليهم الهدايا والتحف من سائر الامراء والتجار الفخام وصاروا كل يوم في
 انسراح جديد وسرور أعظم من سرور العيد واقاموا في فرح ولذات ونعم جزيلة
 مطربات وأكل وشرب وسرور مدة من الزمان الى ان اتاهم هادم اللذات ومفرق
 الجماعات فسبحان الحي الذي لا يموت ويبيدهم قائل الملك والملكوت

بحمد الله قدتم طبع هذه القصة الجميلة البهية المشتملة على ماجرى لعلي نور الدين
 الدين المصري مع جاريته مريم الزنارية وذلك بالطبعة العلمية الكائنة
 أمام الازهر الانور بشارع الصنادقية ادارة المفتقر الى الله مولاه
 المبدى عمر هاشم المكتبي في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣١٢
 هجرية على صاحبها افضل الصلاة وأزكى التحية